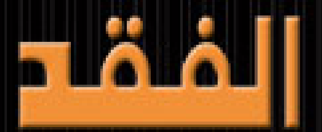
لؤي حسين



حكايات من ذاكرة متخيلة لسجين حقيقي

الفقد



ليس في النص أي خطأ مطبعي أو إملائي أو نحوي...

إنما الخطأ هو في السجن...

لؤي حسين

الفقد

حكايات من ذاكرة متخيلة لسجين حقيقي

دار بترا للنشر والتنمية الثقافية

دمشق ٤٤٣٣١١٢

إصدارات سنة ٢٠٠٥



الإهداء

إلى نيادا التي احتملـت العيش برفقتي رغم احتراق روحي طوال هذي السنين.

وإليها لتحملها مواتي طوال فترة كتابتي هذا الكتاب.

وإلى ليلــى وريما اللتان قيض لهما أن تعيشا مع أب مرعوب من ألا يبرح سجنه يوما ويأتي إليهما.

إن تعثرت فتابع الرقص... فحسب

«كلام سينما»

ليس بداهة أن يكتب السجين عن سجنه كما يتخيل البعض. وليس واجبا عليه أن يروي حكايات السجن فضحا للسجان. فالسجن بعد أن يمضي يتحول إلى حكاية تافهة بالمقارنة مع معاناة السجين. لدرجة أن البعض يتجنب التطرق بالحديث إليها خشية حضور ذكرى آلامه. وأنا من هؤلاء البعض. فلم أحك عن سجني كثيرا طوال أربعة عشر عاما مضت على خروجي منه. أذكره كثيرا. لكن ذكره غير حكايته. حكايته هي حكاية السجين وليست كلاما عن السجن. وشتان بينهما، فالحديث عن السجن أهون وأيسر وأقل وجعا، رغم أنه أكثر خطرا من الناحية الأمنية.

حكاية السجين حكاية مرارة وذل، اعتراف بالخزي والخسارة. وحكاية السجن فعل انتقام وثأر وتعويض نفسي.

توهمت أن سكوتي عن حكايات سجني سيمكنني من دفنها في خرابات الذاكرة. إذ قدّرت أن طيها وحجبها عن حضوري قد يمكنني من الانعتاق منها ومن كبحها لعزيمتي. لكن تبين العكس من ذلك. فدفن إحساس السجن وتجربته هو عكس مألوف الدفن، فهو لا يتطلب الطمر بالتراب والحجارة عميقا في الأسفل إبعادا لرائحته وإقصاء لذكراه، بل يتطلب نبش قبور الذاكرة ونصب الجثة في مواجهة العين وتحت الأنف. أمام عينيّ وعيونكم حتى لو زكمت أنوفنا. فرائحة السجن لا تغور في الأعماق ولا تتحلل في البواطن، لا بد لها، لكي تهجرني، أن تملأ كل الأنوف.

الآن قـررت أن أدفـن حكايـة سجني وأعلـن عليها الحداد، بـأن أبوح ببعض حكاياتها على العلن.

وينتصب السـؤال: لماذا يكتب السجين تجربـة سجنه أو تجربة حياته بعده؟

ألأن السجـن تجربـة فيهـا من الفرادة مـا تجعل الكتابـة عنها تشكل إضافـة واضحة لتنوعات الحياة الإنسانية الأخـرى. أم أنه يكتب مدعيا نشـر رسالة توبـة لا يمكن لغيره حملهـا ونشرها. أم أنـه يعرض مظلمة متعشمـا نيل تعاطـف الناس. أم أنهـا محاولة للتفريج عـن كربه وضيق صدره، أم أن في كتابتها فرصة للشهرة؟

ربمـا كل هذا أو شيء من كله دفعني لأكتـب هذا الكتاب قاصدا نشره وليس إخفائه في أدراجي.

ما كان ليكفيني سرد حكاياتـي في سهرات الأصدقاء ومتابعة عيونهم ووتـيرة تنفسهم لأضبط وقع أقاصيصي عليهـم، فأتحكم قليلا أو كثيرا بأثرهـا عليهـم أو بتأثرهم بها، فأديرها تـارة أستعطفهم إن كنت أشعر بحاجـة إلى العطـف، وتـارة لأبكيهـم إرضـاء لعدوانيتـي، أو أنافسهم بامتلاكـي مأساة تفوق مآسيهم، أو ببطولـة مدّعاة ما طالوها ولم أطلها يومـا. أو أتعـالى عليهم بأني القوي الذي يجتاز المحـن ويبقى قادرا على الفعل والحياة والعشق.

ليس لدي إجابة واضحة أو كافية عن سبب هذه الكتابة.

فلقد كتبت النص الأول وأنا في حالة انهيار وانطواء وخسران. ولم أكن أقصـد حينهـا نشره أو إطلاع أحد عليه. لكن مـا إن أتممته حتى شعرت براحة وتخفف وانطلاق فدفعته للنشر في الصحافة. فجاءت الكتابة التي تلته مؤسسـة عليه، فاستمدت غايتها من فكـرة إتمامه أو إتمام حدادي الذي بدأته به دون قصد. فصارت كل هذه الكتابة دون قصد أيضا.

تعبت خـلال الكتابة وأتعبت مَن حولي. فاستحضـار ذكريات السجن استحضـار لرعبه وقهره. سهرت ليـالي وحدي أكتب وأتذكر وأبكي خوفا ومقتـا وحسرة. ابتعدت عن كل الأعمـال والأفعال المحفوفة بالمخاطر، إذ عز علي تمييز الخطر والسلامة في لحظات كثيرة وطويلة حينها. فذهبت إلى أصدقـاء السجن القدامى أحكي لهم عن تجربتي وأحثهم على كتابة تجاربهـم. بل إننـي حاولت استكتابهم، وكذلك فعلـت مع سجناء أعرف عنهم ولا أعرفهم.

لا أدري لمـاذا تأخـرت بنشر الكتـاب بعد إنجازه أكثر مـن سنة. ربما استرخيت واكتفيت، وربما تخوفت من أن أنشر كتابة غير التي اعتدتها أو عُرفـت بها. فالكتابة الصحفية السياسية ينقصها الخيال وقلة الرصانة وكـثرة الأنا. أما كتابتي هذه فينقصها الحكم القاطع ومسارات الأسباب والنتائـج، وغياب الوجدان والعواطـف، إذ تأخذ صدق الحكاية وتقدمها ضمن تخييل منفلت.

وربمـا تأخـري بالنشر هروبـا من عدم ثقتـي بأني جاهـز لأن أطرح خصوصياتـي علـى الملأ، وأتقبـل تدخل النـاس فيهـا دون أدنى حق لي بمنعهـم عن التدخل فيها. وكيف لي أن أتقبـل أن يتعاطوا معها ويحكموا عليهـا باعتبارها نص وليست آلاما وأوجاع. وكيف لي أن أسمع رأيا ليس معجبا بالمادة أو شخصا ينفـر منها ولا يحترمها على أنها خصوصيات. كيف سأدافع عنها وأحاجج بها وهي ليست رأيا. فحين أكتب رأيا سياسيا أتمكن دوما من الدفاع عنه إلى أقصى حد، ويمكنني بعد حين أن أرفضه وأتخلى عنه لقناعة جديدة. أما هنا فلا توجد كلمة يمكنني الرجوع عنها، ولا توجد فكرة يمكنني أن أجادل بها أو أقنع النـاس أن يتبنوها.

لهـذا، ربما، عبثت بالمـادة المستذكـرة أعرضها ضمن منـاخ تخييلي يمكّنني من التنصـل من أي تفسير محدد لأي عبارة واردة، فأحيل عدم دقة المعنى للصياغة المتخيلة الحاكمة للسياق.

ليس في حكاياتي تسجيل شهادة عن السجون السورية، فكثيرون غيري أقدر مني على ذلك.

كنت سجينا وصرت سجينا سابقا. كلاهما حال وليسا نعتا، فلم يمكنني تغيير حالي «السجين» عندما كنت في السجن، وكذلك لا يمكنني تغيير حالي «السجين السابق» لا بمساعدة طبيب نفسي ولا بجهد ذاتي، وبالتالي فالأصح أن نستخدم اسم مفعول فيه كالمسجون أو المحبوس واقع عليه الفعل. فكيفما اتجهت وحيثما مكثت ستواجهني السلطة وتحاصرني بأني سجين سياسي سابق. نعم هي كذلك، فحينما كنت في السجن كنت متهما عرفيا باعتقادات سياسية لا تقبل بها السلطات، وبعد أن خرجت من السجن صرت متهما بأني كنت في السجن دون أن يتطلب ذلك معرفة متهمي سبب سجني.

ورغم أنه لا يمكنني أن أعمل أو أسافر أو أكتب أو أفعل أي شيء بدون سماح أمني أو على الأقل معرفة المخابرات بجزئيات حياتي اليومية، رغم ذلك ممنوع علي التصريح العلني أو الجهر بأني «سجين سابق».

لهذا ستلاحظون تجنبي طوال الكتاب عن ذكر أي مفردات أو تواريخ أو أسماء صريحة، إذ قد يعتبرها السادة الأمنيون إفشاء لمعلومات أمنية. وكأني دخلت السجن طوعا أو باتفاق معهم حتى أكون مؤتمنا على تلك المعلومات.

لكن لم يقتصر حذري على الناحية الأمنية فحسب. فقد نقصتني الجرأة عن التطرق أو عن تناول مواضيع ذات حساسية اجتماعية. فالسجين السابق هي أيضا قيمة اجتماعية، إذ ينظر الناس لصاحبها نظرة ملتبسة وتحكمه بضوابط مختلفة عن الطلقاء.

وكذلك أعفيت نفسي من الحديث عن منغص كبير في السجن، خاصة في مراحله المتقدمة، وهو بعض أوساط السجناء الذين يعيش معهم السجين فيحيلون زمن سجنه جحيما فوق جحيم. خاصة في الأوساط

الحزبيـة والسياسية المتطرفـة أو الطفلية البارعة بممارسـة كل أشكال وأدوار الاستبداد.

ربما لا يهدأ لأحدنا بال ما لم يحكي حكايته ذات مرة. فكيف لشخص قضـى سنوات حيوية من شبابـه في السجن، كيف له ألا يحكي عن ضياع سنـوات من عمـره لم يكن فيها أي مجـال للشباب والصبـا والصبو. بل سيكون شبابه وصباه، من دون أدنى شك، عبئا عليه في السجن، بل وأحد ضواغـط السجن. وحـين سيخرج من السجن إلى الحيـاة سيكون صعبا عليه التعايش معها من دون شبابه الذي ضاع لحظة ظلم أرعن.

لم أسمعهـم لكـن لا بـد أنهـم قالوا لي حينهـا: عليـك بالسجن حتى تحبه... ولم أحبه حتى اللحظة.

سلّم الآلام(×)

مـن ذاكرة ما تحضرني رغما عني منذ عشرين عاما، سأقتبس كلاما وأرويـه كما هو بما يحمله من عـدم الأمانة. فهو ككل الذكريات تحضرنا كما نراها وليس كما حدثت، تختلط بمشاعرنا وبمواقفنا منها ومن حالنا. إنه كلام ليس أكثر، لا يبتغي غير أن يحضر ويكون بيننا، أن يكون أحدنا. يبـدأ من ذكرى صبيحة أحد أيام القـرن الفائت، إنه ليس صباح يوم بل بداية يوم، لكنني كنت حينها لمّا أزل لا أميز بين لغة الحياة ولغة السجن. فالمكان هنا لم يتعرف بعد على تباين الليل والنهار، وتفاوت برودة المساء وقيظ الظهيرة في هذا التموز. نوع وجبات الطعام هو الذي يوقّت تقريبيا ساعـات اليوم، وفي ما بعـد سأعرف يومين من الأسبوع من كسرة العظم التي تقدم في غدائهما.

كان صباحي الأول بعد أطول ليل يمكن أن يضبطه توقيت وتزمين. فَتحَ البـاب من لا يعرف اسمي ولا سبب وجـودي هنا، ابتعدَ عن الباب يحمي نفسه من رائحة المنفردة (اسم الزنزانة التي تتسع لموقوف واحد) وطلب مني الخـروج. أشـار إلى الطمّيشـة (عصابة عيـون)، عرفتها وعرفت اسمهـا من ليلـة البارحة ولم يتسـنّ لي الوقت لأحدد موقفـا منها، فهي غريبـة علـيّ لم أعرفها قبل الأمس. كل الأشيـاء هنا غريبة وجديدة، قد يوجد منها أو مثلها في الحياة لكن بتسميات أخرى ولاستخدامات أخرى. الرائحة هنـا غريبة، ليست مختلفة بل غريبـة، والغرف كذلك، الأبواب والحديـد أيضـا، والبشر وأنـا، أنا غريب عن نفسي وعـن حالي. الشيء الوحيـد الحقيقي هنا هو الكهرباء هي التي تضيء وهي التي تكهرب. ما عدا ذلك عماء.

---

* جريدة التهار اللبنانية ٢٠٠٤/٦/٧.

تناولت إحـدى الطميشات المعلقة، حسب ما أشـار لي، ووضعتها على رأسي؛ في غاية اللطف تركوني أضعها بنفسي استمتع باستقلالية أدائي، وكأنهم يعرفون ميلي لأنجز أعمالي بنفسي. هذه الطميشة ليست للزينة والتحلي، فهي بشعة ومقرفة، ولا حاجة للذكاء لأعرف أنهم لا يريدون أن أراهم. ليسـوا خجلين من فعلتهم فرجال بلادي ونساؤها لا يخجلون من إهانـة الإنسان وإذلاله، بل ذلك، أحيانا، مصدر مباهاة واعتزاز يسوّغه تكفيرنـا لهـذا الإنسان بما نعتقـده أو نؤمن به. إذن لمـاذا حلفائي هؤلاء بصراعـي ضد الإمبرياليـة والصهيونية لا يريدوننـي أن أراهم؟ حتما، خافـوا إن عرفتهـم وضعفت يومـا في وجه الإمبرياليـة والصهيونية (لم تكـن العولمة قد ولـدت بعد) أن أشي بهم، خاصـة أنني ضعيف ووطنيتي قليلـة وأنا شاب صغير معرّضـ لأن أتنازل للإغـراءات ولتوريط نفسي؛ أليسـ هذا مـا سيقولونه لأهلي في ما بعد: احتجزنـا ابنكم احترازيا كي لا يتـورط!! شكرا لغيرتهم على رعيتهـم. لا، لقد طمشوني لخبرتهم بأن الظلمـة ترهب أعتـى الرجال، ولأن الضربة التي تأتـي من دون أن أراها لهـا أثر مضاعف. يريدون أن أكون وحدي خلف طميشتي: فالعين مغرفة الـكلام ومغرفة القوة ومغرفة الرحمة. ومـن دون عيوني لن أغرف شيئا ولن أكون أنا.

دفعني بصفعـة على مؤخرة رقبتي ليدلني علـى الاتجاه الذي علي أن أسلكه. وعرفت بعد ذلك بحين أنه كان علي أن أقطع المسافة بين الجناح الشرقـي وساحـة التحقيق. ولم يأخذ هذا الجنـاح تسميته بالشرقي من نوعيـة نزلائه، أي لكونهـم شيوعيين من حملة أيديولوجيـا شرقية، فقد نقلـوني بعد يومـين إلى الجناح الغربي. فهذه التسميـات كانت نسبة إلى الاتجاهات.

المسافـة التـي سأقطعهـا إلى سـاحـة التحقيـق ليست طويلـة وليست قصيرة، كما أنهـا ليست وسطا. فهي لا تقاس بوحدات الطول بل بحجم المعانـاة التي أقاسيها بين زنزانتي التـي نسيت رقمها الآن وبين محققي.

هي فظاعة الهلوسات التي أعيشها قبل أن أصل إلى رغبة محققي، حيث الحقيقـة... حقيقة الوجع. وباعتباري ما زلت حديث العهد والخبرة في هذه الدنيـا العجيبة، حاولت رفع معنوياتي وشـد أزر نفسي مقاوما عتم الطميشـة، لكنـي صُدمت عندما غصصـت بإنشاد: «يا ظـلام السجن خيّم/ إنني أهوى الظلام» الذي كنت أنشده ورفاقي دوما قبل هذا اليوم: ما حالي الآن لا أهوى هذا الظلام وخاصة ظلمة الطميشة؟

بعـد عشر سنين مـن ذاك الصباح ربط طبيبـي الفيزيائي قدمي إلى جهـازه وأمال رأسـي إلى الأسفـل، كان يعالجني من إصابـة متعمدة في عمـودي الفقـري، ولم ينجح، فنصحني بالتعايش مـع ألمي كشريك دائم في حياتـي. تذكرت هذا اليـوم وأنا على جهاز الطبيـب، وقلت حينها: لو عرفت هذا العلاج قبل ذاك اليوم لظننت أنهم يعالجونني مما سيفعلونه بظهـري قصدا وعمدا وانتقاما لخداعي لهم في يوم تال لهذا اليوم الذي أتهيأه.

تسلمنـي من يعرف اسمي وغايتهم مني ممن لا يعرف. كان استلامي وتسليمي بينهما مثل ورقة بين موظفي دائرة النفوس، لا يهتمون إن كانت ورقـة وفاة أو ميلاد، يوقّعونها ويختمونها ويشيرون لك بطرف يدهم مرة وحيـدة إلى وجهتـك التالية مـن دون كلمة ومـن دون أن يرفعوا نظرهم صوبـك، ولا يجدون داعيا لتعزيتك بالوفـاة أو تهنئتك بالميلاد، ولا تتغير سحنتهم.

هاتوا السلم، قالها قائد الحفلة. لن أخطئ كما في الأمس عندما طلبوا الكرسـي فظننت أن ما طلبوه هو نفسـه الكرسي الذي أعرفه ويعرفه كل النـاس. لن أحسن الظـن أو أسيئه هذه المرة وسأعتـبر أن المطلوب ربما سلـم صغـير كالذي تستخدمـه بعض السيـدات اللواتـي يمتلكن مطابخ واسعـة وعاليـة، ليس كمطبخ أمـي، ليضربني بـه، إذ لا يجوز، وهو قائد الحفلة، أن يستخدم مثل مرؤوسيه كرباجا مجدولا من كابل هاتف صنعه

الغربيــون مزدوج الغايات مثل معاييرهــم، يستخدمونه لشيء ويفرضون علينـــا استخدامه لغاية أخرى يريدونها لنـــا. لا أظن أحدا يخالفني رأيي هــذا بالغرب لأنه حقيقة ثابتة تعلمناها منذ أول صف في المدرسة، وأثبت التاريــخ صحتهــا وثباتها وأكدهــا سقوط صــدام حسين الــذي قال فيه أساتذتنا أن الاميركان اخترعوه لنا مزدوج الوظائف وأننا لسنا مسؤولين عن ذلك: عذرا من جميع العراقيين فهذا الزمن لهم، لكن لأسباب تقنية تزامنت همهمتي مع صراخهم.

لمــاذا كل هذه القســوة والشدة معي؟ لم يقل لي أحــد أن الأمر سيكون فظيعا إلى هذا الحد، أنا شأني صغير ولا أعرف إلا القليل الذي لا يساوي كل هذا العذاب. يتهمونني بأني أعرف كل شيء وكل أحد؛ إنهم يخدعونني: هكذا علمني «قادتي»: يدّعون أنهم يعرفون عنك كل شيء ليجعلوك تظن أن «صمــودك» لا جــدوى لــه ولا معنى. لكنهــم كانوا مصيبــين و«قادتي» مخطئــين، وكنت خاطئا. وهل كوني أخطأت في تقدير معلوماتي أو رغبت أن أكــون بطلا كغيري يعطيهم الحق أن يذيقوني كل هذا الألم؟ هل يحق لهم كونهم يعرفون كل شيء عني أن يذلوني كل هذا الإذلال؟ هل يستحق ذلــك هذا العقاب؟ فلطالما أخطأت، وكذلك جميعنا، في الامتحانات ومع الأهــل والنساء ولم أعاقب بهذا الشكل. لا يوجــد سلّم طبيعي يوصل إلى الــذرى إلا هذا السلــم فهو السبيل الوحيدة لبلــوغ ذروة الألم. هل عرفوا عني أني أحب الذرى فأذاقوني ذروة الألم وذروة المهانة؛ لكنني لم أطمح يومــا للــذرى الكبرى فجــلّ ذُرايا ذروة نهــد أو ذروة أنف امــرأة أو ذروة هدبها. حمدا لله أنهم لم يعتقدوا أني أرغب ذروة الخازوق.

رأيت مثل ذلك في أفلام الكرتون التي لم أكن كبرت بعد على متابعتها، لكنهم كانوا هناك ينجون، لماذا أنا لا أنجو إذن؟ وما كانوا يتألمون، فلماذا كل هــذه الآلام التي أشعــر بها؟ هل أنا ضعيف إلى هــذا الحد لكي أتألم أكــثر من أبطال أفلام الكرتــون؟ لا... لا أقبل، فالضعــف عيب، والألم

الذي أدّعيه ليس للرجال، إنه للنساء اللواتي كُتب عليهن ألم الولادة، ألمي هو حمل المعلومات التافهة وفَرَجي بولادتها.

لم يكن كأي سلم ينتصب متعامدا مع الأرض أو شبه متعامد، فهذا ألقوه على الأرض، عرفت ذلك عندما مدّوني (بدال واحدة) عليه، أو للدقة عندما شبحوني عليه كما قالها الزعيم، وربطوا أطرافي الأربعة بإحكام، كلاً على حدة. لو أن هذا الحادث جاء بعد زيارتي الطبيب الفيزيائي لقلت أن هذا الزعيم وجماعته يقصدون تقويم اعوجاجات ظهري وقدميّ، وأن يفردوا أصابع كفّي التي انكمشت ولم استطع بسطها منذ حفلة البارحة، ولم يستقم ظهري مذ عرفت ليلة أمس ما سموه بالكرسي. أتمنى أن نعيد جميعا مسند ذاك الكرسي وطرّاحته ونعيد تأهيله ليكون كرسيا، فأنا سأقبل الجلوس عليه عندما نلتقي حتى لو كان رخيصا، ويمكن للجميع أن يبقوا جالسين على كراسيهم الوثيرة العالية. أنا يكفيني أن يعاد لذاك الكرسي فرشه لينتصب ظهري عندما أجلس عليه.

لماذا لا يعمل اللغويون على إنتاج مفردات دقيقة، توضح المعنى المحدد والدور المحدد للأشياء، فالكرسي والسلم والكهرباء والقفل وأشياء ومعان كثيرة يجب أن يكون لها مدلولها المحدد. التعذيب كلمة لا تناسب المعنى في هذا المكان، فالعاشق يقول عن عشيقته عذبتني ولهاً، والأم تقول لابنها عذبّتني بشيطنتك. الحال في هذا المقام يحتاج لغة لا دلالات حية أو إنسانية لها. هنا المعاني نقية لا يشوبها التعدد أو التشابه، فالكلمات هنا أمهات لا اشتقاقات. كل الكلمات هنا تستقبلنا بـ«ال» التعريف أو تدبرنا بياء الملكية لتبقى مفردة، فهنا العذاب وهنا الفراق وهنا الذل... هنا وجعي وهنا حبسي وهنا عمائي. بدأت أظن أن هناك نوعين من الوجود: السجن والحياة، لا أعرف من كان قبل الآخر، يصعب علي حسم هذه المعضلة. فالصفاء الموجود بالسجن يؤكد أنه كان البداية. وإن صح ذلك فيمكن اعتبار تاريخ الحضارة هو تاريخ خروج البشرية من السجن.

قيــل لي قبل ذلك: اصرخ ترتح وتنج، وقيل لي: لا تصرخ فترتاح وتنج. جربت كل السبل والأساليب فلم أرتح ولم أنج، فكل ما قيل لي عن ذلك كان هــراء. كان «شييت» بحسب الأميركان. لا يسعدني ما أقوله، ولا يشرفني مــا عرفته. وإني لخجــل إن كان ما أسرده صحيحا وأنــه حدث ذات يوم ويحــدث أي يوم في مكان ما مــع أحد ما. سأبقى أقــول للجميع لا تقربوا السجــن لا أنتم سكارى ولا أصحياء. أعرف أن كلامي لن يلغي السجون: ليس في بلادي؛ ليس خلال حياتي. وأعرف أنني قد أعود سجينا ذات يوم لا لأني أسعى إلى ذلك بل لأني مسلوب الحق بألا أسجن إلا بحكم القانون وتحديدا القانون الشرعي الذي يشرّعه شعبي وشعوب العالم.

ثبتــوني علــى السلم بأربــع أربطة رفيعــة متينة. فقــدان الحركة على السلــم لا يهــم لأن الأمر نسبي. هذا تعلمناه من نظرية الثورة.. فإن كنتُ عاجزا عــن الحركة على السلم فأنا أتحرك مــع المجموعة الشمسية... مــع الأرض... مع أرض الوطــن، يا محلا الحركة مــع أرض الوطن ولو كنت مربوطا ومعلقا بالمقلوب كذبيحة تُسلخ، فهذا لا يهم، إنه أمر نسبي: مــن يمكنــه بتلك اللحظــة أن يحسم من منــا مقلوبا رأسا علــى عقب أو عقبــا على رأس. فأنا من وضعي أراهــم مقلوبين رأسا على عقب (هكذا هو الاصطــلاح)، كما أنا من زاوية نظرهم مقلــوب عقبا على رأس. هم يعتــبرون وقوفهــم سليما وصحيحا طالمــا هم اختــاروه، وكأنني لم اختر موقفــي عندمــا أثرت قوة بطشهــم. وإلا ما معنى قــول صديقي إبراهيم أنــه يتحرش بهــم ليعتقلــوه ويصير مناضــلا يزيد بتجربتــه الفذة على باقــي مثقفي المقاهي التي يرتادها. ربما هم يسوقون حجة قوة الجاذبية الأرضية معيارا للوقفــة الصحيحة، لكن حججا كهذه غير مأخوذ بها في ثقافتنــا، إذ لم يصدر إلى الآن مرسوم عندنــا يقر بالجاذبية أو بصعود الغربيــين إلى سطح القمــر أو بحقنا في استخــدام الصحون اللاقطة أو بالاشتراك في البريد الالكــتروني؛ ونحن في حاجة لمرسوم أو تشريع لكل

فعل أو ممارسة، ولو كان الأمر غير ذلك وكان العلم هو مرجعنا لبززتهم وكنت طليقا.

تركنــي على السلم واعتــبر أن بيدي إنهاء الحالة. هــذا الأمر كان في حاجــة لتفكير، لدقيقــة تفكير، لكــن الألم كان يعبرني بالثــواني ويشغل كل مكونــات جسدي، كل خلية أكانت في الدمــاغ أم في الجلد، في الإظفر وحتى في البول. فمن أين سآتي بخلايا تفكر لي عن حل: هل إذا بُحت له بمعلوماتي سيتركني من دون العذاب؟ الجواب عنده لكنه كذاب سيعِد بما لن يفي به. هل إذا لم أخبره وصبرتُ قليلا سيعدم الجدوى مني ويعتقني مــن الألم؟ كلا، فالتعذيب هوايته وموهبته وعمله، لا يضجر من التعذيب بــل يضجر من دونه. مــاذا سأكون إذا أخبرته: سأكــون متخاذلا؟ وماذا لــو لم أخبره: سأكون بطلا؟ هل أنا مشغول بغيري أم بنفسي؟ هل أحاول نجاة الرفاق، أم النجاة بنفسي؟ كل هذا التفكير ربما لم يكن حينها، قد يكون بعد ذلك بزمن أو ربما الآن. حينها لم يكن لدي متسع بين الصرخة والصرخة إلا لشد شهيق يملأ صدري، يعينني على الصراخ: يُخرج مني صوتــا ليس صوتــي. إنه صراخ ذاك الحيوان البدائــي الذي كنته قبل أن أكون إنسانا يعرف التحكم بلسانه لنطق الحروف.

أصابنــي صداع رهيب وأنا على جهاز الطبيــب الفيزيائي فطلبت منه إنهاء الجلسة. لم أقل له لماذا، لكنني لا أريد علاجا له أشباه في ذاكرتي. حاول بطريقة أخــرى فكانت شبيهة بذكرى أخرى. كل العلاج الفيزيائي سأرفضه لأنه يذكّرني بالقرن الفائت، هو اتجاهٌ عكس التعذيب، تصحيح لإصابــات التعذيب، فلا أريده، وسأكتفــي بالسيتامول شريكا لي مع ألمي نكمل بقية العمر.

بعد ساعة أو ساعتين... هذا ترف!! الزمن هنا لا يقاس بالساعات بل بالصرخــات والجلدات، إذن بعد مئــة صرخة أو ألفين توحدتُ مع السلم والأربطــة، صار سلمي وصارت أربطتــي. غارت أربطتي داخل جلدي ولم

تعـد تُرى، وفاض جلـدي المنتفخ وأحاط بخشـب العوارض حتى استحال علـى أحـد أن يعرف إن كنا تكوّنـا معا أو أحدنا جاء قبـلا؟ وهل تعشُّقُنا ولهاً أم نحن واحد لا اثنان إن افترقنا ننته كلانا مثل التوأمين الإيرانيتين لادان ولالي. عرفت وصف هذا الوضع عندما رأيت بمرات لاحقة بطرف عيني غيري بوضع مماثل.

أحـد الملاعـين عرف بأمر توحـدي مع السلـم أو كان يعرف ذلك قبل الآن، راح يضـرب السلم ولا يضربني، برّأ نفســه أمام ربه. لم أميّز تلك الضربـات في البداية فالألم نفسه وصريخي نفسه. بعد قليل عرفت هذه الملعنة من صوت الكرباج، فجِلدي لا يصدر هذا الصوت، وحتى لو تمزق أو اهترأ مثلما حصل ببعض ظهري وانكشفت عظامي فليس لعظامي رنين هـذا الصوت أيضا. وددت لـو أرى وجهه بعدما اكتشفت «ذكاءه النافذ»، هل كان يبتسم شطارة؟ أم انفرجت أساريره رضاً لأنه تبرّأ من جريرتي. لكـن لا يمكننــي أن أراه حتى لو أزيلـت طميشتــي الآن لأن عيناي غرقتا في محلـولٍ خليط مـن الدمع والعـرق والمخاط ونقيـع الطميشة. فالدمع لا يسلـك قناتـه إن كانت هي فوقـه بل يسلكها المخـاط إذ تصبح مجراه إلى العيون، والعرق بغـير هذي الحال تحولُ الحواجب بينه وبين العيون، وفي هـذه الحال تخزنه الحواجـب وتتحول سداً مـع كاوتشوك الطميشة يمتلئ بعرق كل الجسم الذي يشق طريقه من هنا بانجذاب لرغبة الكرة الأرضية.

عرفت الآن لمـاذا الطميشة الوطنية تُصنع مـن الكاوتشوك وليس من القماشـ كالبلدان المجاورة، فهذه لا تمتص العرق ولونها أسود مسود، لا ينفذ منها ضوء ولا هواء ولا عرق، وتهوّن انحلال ما يعلق عليها من قذارة وأوســاخ ودماء بأي سائـل، عرقا كان أم دمعا أم دما. إنها صديقة البيئة وتماشي ترشيـد الاستهلاك لأنها تُصنع من الدواليـب الجوانية التالفة للسيـارات الحكوميـة (لو عـرف بهذا الأمـر علي سـالم لأدرك تمسُّكنا بالجواني لما له من فوائد لا أعرفها جميعها)، فهي تُستخدم مئات المرات

لأنهـا غير قابلـة للتلف جراء هذا الاستخدام، ولا تحتـاج لتعقيم: فاتهم أن يعقموها أو يستخدموها لمرة واحدة فقط حفاظا على الصحة، لكانوا أوجدوا مدرسة سريالية جديدة.

في البدايـة يستهين الجسد بوضعه الجديد، يعتـبره طارئا. أُلهيه بين وجبة الجَلد والأخرى بأنـينِ وعويلِ آخرين قربي وهم يستجيرون برحمة المحقق: (ببوس أيديك يا سيدي... اللّه يرحم بيّك يا سيدي... وحياة أمي يا سيدي الدخانات ما إلي). ضحكت من العبارات التي يطلقها هؤلاء ومـن طريقة توسلهم المخادعة، الضحـك في وضعي ليس من قلة الأدب. كان ذلـك خـلال الدقائـق التي يغيب فيهـا المحقق ليذهـب إلى أحدهم فتذهـب معـه كل فرقته التـي يتزعمها، ليعود إلي بعـد قليل يقودهم من دون كلام ومـن دون إشارة مباشرة: عندمـا يسخر مني بغباء يضحكون مقهقهين جميعهم، وإذا لبطني، ينهالون عليّ بكرابيجهم ولا يتوقفون إلا إذا ابتعـد. ظننته، بابتعاده وتركي ألتقـط أنفاسي، رؤوفا بي، محاولا أن يُظهر نفسه وفرقته أفضل من ذاك المهيب وفرقته الذين ساهروني طوال الليل في مـكان آخر وبأدوات أخرى (ستحتـاج طبيبتي النفسية لعشرين سنـة أخرى كـي تقنعني بسرد أحـداث تلك الليلة). صحيـح أنه قبل أن يرفـع أفراد فرقته السلم ليوقفوه بعـد أن كان ممدودا على الأرض أثبته بثقل جسمـي، عاد إلى طفولته اليابسة وأخذ يقفز فوق ظهري لاهياً، هو لم يـرد بذلـك كسر عظام صـدري وإلا لكان كسرهـا. أراد فقط أن يلهو قليـلا، أن يتشيطـن من دون أن توبخـه أمه؛ ومع ذلك كنـت مازلت أراه أكـثر رحمة من سهـارى الأمس رغـم الأسلوب الجديد الـذي استحدثه بعدمـا شبحوني مقلوبا، ففي أحد مروراته عليّ انتبه إلى أن رأسي متدلّ بنفور من جسدي، ركله مجرّبا فجاح بشكل راقَ له على ما يبدو لأنه جعله لعبته كلمـا جاء وذهب. وكالعـادة، فما يفعله الكابـتن سيفعله كل أفراد الفريـق، كلٌّ بفنّية مختلفـة. لم أستأ بل شاركتهم اللعبـة: أنا فريق وهم فريـق، وشروط اللعبة أن ألعب أنـا برأسي وهم بأحذيتهم. وراهنت على

الفـوز لأني لن أخسر رأسي بل سأربح فقدانه، فهو عالة علي الآن وزائدا على كتلتي الثابتة.

ليسـ هناك حَكَم ولا صافـرة ولا توقيت ينهي اللعبة ولو من دون فائز. يوجـد جمهور يتفـرج وهو يعبرني بلا مبـالاة، يشارك أحيانـا في اللعبة ويكـون مع الفريق الخصم، كأنهم في تدريب وليس في لعبة رسمية، وكأن ساحة اللعب مباحة للجميع شرط ألا يكونوا من فريقي. أحدهم ابتكر ما ظننتـه خروجـا على القواعد، لم أكن أعرف كل شـروط اللعبة، فلم يشأ أن يرمـي عقب سيكارته على أرض الملعـب كي لا يحرق البلاط فأطفأها بخاصرتي، لكنه كان على عجلة في ارتكاب هذا «الفول» فلم يفركها على جلدي، فقط معسها.

مـرت علي لحظـات من دون صـراخ، لظننـي آدمي يمر صوبـي أنني اخـترت هـذا الوضع طالما أني لا أشكـو ألما. لم أكن أصـرخ لأنني حينها أكـون دخلت داخـل الألم، اتحـدت به، بل توحـدت معه، تسـاوت عندي الأحاسيسـ والأشيـاء والجسد والذكريات والأحـلام، صرنا جميعا على مستـوى واحد، لا تفـاوت في الارتفاع أو اللون أو اللذة أو الزمن، لا أصرخ لأن الصـراخ والصمت باتا على سطـح واحد وسماكة واحدة. أنا لا أقرر أن أصرخ أو أنكتم، هو الصراخ يقرر ذاته، فلقد استقل عن إرادتي لأنها انعدمـت. تساوت معه. ابتلعها فصار أنـا وصار هو وبات يقرر الظهور أو الاحتجـاب لوحده. صار صراخا مطلقا. قبل ذلـك كان صوتا يخرج من حنجرتـي يُدعى صراخي، الآن هذا الذي يمـلأ المكان ليس صراخي: هو الصـراخ الأصـل، لم يعد هو مني. أنا صرت منه. مـا أقوله ليس بلاغة. إنه معلومة. اكتشـاف. وذات يوم، عندما تصلنا الحداثة سأسجل براءة اكتشافـه باسمي. كل الأصوات التي خرجت ممـن كان في وضعي، كانت ذات الصـوت، لا يمكن لأمّ أن تعرف ذاك الصراخ إن كان لابنها حتى لو رأته يخرج من حنجرته. بعد أيام صرت أميز عن بعد، بحسب الصراخ،

الوضع الذي فيه صاحبه، وهذه ليست براعة مني، فتلك المعرفة لا تحتاج براعة.

احتجت للتبويل ككل الثديات. أنكروا علي حاجتي تلك، أمروني بحل مشكلتي من موقعي ووضعي الذي صار طبيعيا منذ ساعات. لم يكن للمثانة القوة الكافية لتخرج سائلها بعكس الجاذبية الأرضية، لكنها فعلت ذلك إرضاء لعلماء البيولوجيا الذين يقولون بالاصطفاء. فعلتُ شيئا قليلا، لم أعرف ما هو عندما لاحظته حين ذهبت رغما عني إلى الحمام ليلا، لم يكن بولا!! ربما يكون ذاكرتي وقد تحولت سائلا، أو أنه عصارة أحلامي أو عصارة كرامتي؛ لا مجال ولا نفع من معرفة ذلك الآن. أحمد الله أن المأساة لم تصل لأن تغط علي ذبابة، وإلا كيف كنت سأهشها. لكن من أين تأتي الذبابة إلى هنا؟ طواعية لن تأتي، وقسرا ستنتحر، ولن تقبل الذل كالإنسان.

هم يزدادون قسوة وأنا أزداد ألما ووجعا. ليست لعبة عض الأصابع وإن كانت تشبهها. فهم يعضون أصابع يدي وأنا أعض أصابع يدي الأخرى لأخفف عن أختها ألمها. كانوا ينهالون عليّ عندما يشكّون أني أكذب، وينعتوني بالكاذب وكأن بيننا ميثاق صدق. حقيقة، أنا لا أذكر مثل هذا الميثاق!! وهذا لا علاقة له بالذاكرة بل بكل ثقافتنا الكذّابة في جذريها السلطوي والمعارض التي أنتجت لنا تاريخا كذابا وأدبا كذابا وسياسة كذابة. ومع ذلك أقرّيت من حينها بوجود ميثاق صدق يلزمني تجاه الآخرين ألا أكذب على أحد ولا على مؤسسة. وفي المقابل لا أشترط التزام الآخرين بهذا الميثاق، فكلٌّ عليه بنفسه ومسؤول عنها. ولو أعيدت الكرّة ثانية لن أكذب عليهم ولا على غيرهم. لكنني في المقابل سمحت لنفسي أن أفوّت الفرصة على الجميع وأصرّح قولا أو كتابة بكل آرائي وكل سلوكي بشكل مسبق بحيث لا يبقى عندي أسرار، فربما يكون هؤلاء على حق وقد تكبدت كل تلك العذابات لأنني كنت كاذبا بما أقول ومخفيا ما أفعل.

عُلِّمت فيما مضى أن حبل الكذب قصير، فلم أهتم لطول ذاك الحبل، ولم أعـرف قبل الآن أن حبل الكذب يُصنع من الفولاذ المجدول وأنه يؤلم جـدا، قصـيرا كان أم طويلا، فطوله لا معنى لـه. وعُلِّمت أن الله يعاقب الكذابـين بالنار فاستهنت بالأمر إما لأني لم أصـدّق أصل الحكاية وإما لأني تعشّمـت برحمة الله وغفرانه. وعندما كانت تشكوني أمي لأبي على كذبـي، كان يقرّعنـي ويحرمني المصروف. لم يقـل لي أحد منكم أن من يكذب سيقع بين أيدٍ لا تعرف الرحمة، لكنتُ صدقتُ وأحجمتُ عن أصغر كذبـة طوال حياتي. تنصحني طبيبتي النفسية بأن أجاهر بكل ما أعرفه لكـي أشفـى وخاصة قصة السلـم، لأن في إخفائها ممارسـة كذب آخر. لهـذا صرت كل مساء أجلسـ على الرصيف وأبوح بـكل مواقفي وبكل ما فعلتـه طوال اليوم والليلـة السابقة. وأفكر الآن بعد العـراق أن أتلو ذلك باللغة الإنكليزية أيضا.

هل يمكن أن نتبادل الأدوار يوما؟ نعم بالتأكيد، فثقافتنا، أنا وهم، هي هـي، في ذلك الوقت، أنا أدّعي أني أضحـي بجسدي وكرامتي ومستقبلي وعواطـف أمي في وجودي في هذا المكان، وهـم يدّعون الدفاع عن الوطن والسيـادة ومصالـح الشعب بما فيها مصالحي عـبر وضعي على السلم. هم يعتـبرون أنني مغرّر من الإمبريالية أو عميل لهـا، وأنا أرد لهم تهمة العمالـة وأن الإمبرياليـة أضلّت رشدهم. كلانا يعـادي الإمبريالية وهي تحبنا على ما نحـن فيه. هم يحللون أي شيء بادعاء حماية الوطن، وأنا أحلل ذلك؛ هم يعتبرون أنفسهم يعبّرون عن مصالح الشعب، وأنا كذلك، والسلّـم يحتار بيننـا...، لكنه يدين بالولاء لهم لأنهـم صانعوه ولم أكن قادرا على صناعة أو امتلاكه مثلهم. هم الآن رفعوا السلّم إلى السقيفة، وأنا مستعد أن أعادي البيئة وأحرق كل أشجار الأرض قبل أن أصنع سلّما من شجرة.

قلـت لنفسـي: أخفضـ صوتك كـي لا تسمعـك أمك تصرخ ألمـاً، فلم أستطع. لماذا لا تكون أمي كأم مكسيم غوركي، لربما حينها كنت احتملتُ

الألم أكـثر. إذن ليس ذنبـي بـل ذنب أمـي... وربما ذنـب غوركي لأنه اخترع أماً كما يريدها ستالين وليست أماً كالأمهات التي قهرهن ستالين وأثكلهـن. وكيـف ستسمعني أمي وأنا بعيد عنهـا وضجيج نهارات دمشق يبـدد كل صوت. ربمـا لا تكون بعيدة، لا أعرف أين أنـا، فقد أكون قريبا منها أكثر مما أتوقع، وقد تكون تمرُّ قربي هائمة في شوارع دمشق تبحث عـن بكرها الغائب. ربمـا أمّ أخرى تسمعني وهي تبحـث عن ابن لها، أو أكـثر، فتظنني هـو، كان عليها هي أيضا أن تكون كأم غوركي،... فأنا لا أقوى على خفض صراخي يا أمهات.

حَمَل المسيح صليبه ولم يكن أثقل من سلّمي الذي لم أحمله، هو احتمل لأنـه يعرف أين هو ويعرف مصيره وأنـا لا أعرف ذلك، كان أبوه يناجيه فـوق رأسـه في السماء، وأنا كانـت الأرض فوق رأسـي، وليس تحتها آباء يناجـون أبنائهم، ربما لو كان رأسـي صوب السماء لكان لي أب يناجيني ولكنـت مسيحا جديدا ربما. لكن أن تكون قدمـاي صوب السماء، صوب الآبـاء، فلن أكون مسيحا، ربما أكـون شيطانا. أليست الشياطين أشباها مشوهـة للبشـر؟ أنا كذلك الآن. لـو أعرف أني سأزيـح البوابة في الليلة التاليـة وأخرج لألقى أحبتي لاحتملت ألمي وقلـت للجميع: احملوا آلامكم فهي منجاتكم. لكنني لأبوين مسلمين لا يحق لي الارتداد عن دينهما.

هـذا السلّم وفيّ لأصحابـه، يبخل علي أن تكون إحـدى عوارضه أمام رأسـي، لربمـا أرحته عليها أو شججتـه بها. مصنوع بإتقـان كما صليب المسيـح، ويمكنني الجـزم أن صانع هذا هو صانـع ذاك أو أحد أحفاده. كلاهمـا مصنوع مـن خشب متين ثقيل أجـاد صانعيهمـا صقلهما فكانا أملسـين ناعمـين يغريـان بملامستهما. لو كانـت عارضته أمـام وجهي لعضضتهـا بأسنـاني، لكـن كانوا سيفطنـون للأمر ويضعـون لي لجاما كالـذي يوضع للكلاب كي لا تعض. أسناني التي عرَفتْ أن تقضم وتمضغ الطعـام أو الملذات لإمتاعي، تعض الآن زنودي لتخفف ألمي، مزّقتْ جلدي فهـو طري علـى احتمالها. إنها بحاجة لشيء قاسٍ تكسره بدل أن يكسّر

بعضهــا بعضا... رأســي الآن يثقلني، يتدلى مني كأنــه زائد عني، ربما لــو لم يكن موجــودا الآن أو كان مربوطا، لخفف وزنــا عن ضغط مرابط قدمي.

جــاءني يقول: لا تكــبّر رأسك...، أنا لم أكبّره هــو كَبُر من ركلاتكم. صار أكبر من أن أسيطر عليه. صار أكبر من أن يُركل. عاد رأسي لي أنا. لم يعد رأس أحد، لا أنتم ولا جماعتي، وأنا سأقرر مصيره. دخلت اللعبة بجدّ عندما شعرت أن غريمي أقل من زعيم الليلة السابقة، كان يضربني بتشــفّ. قد يكون سبب ذلك أننــي ألفظ الأحرف اللثوية عندما أقول أني لا أكــذب، وهو يقرأ «الكلاب المذعورة» بــدل الكلاب المسعورة الواردة في المناشير، رغم إجازته الجامعية. شعرت أنه يريد أن ينتصر عليّ، وليس همّه الآن المعلومات التي أخفيها. استفزني فانجررت إلى حالة التحدي، ودخلــت الرهان: لن تنال مني أنت تحديدا، أريد سيدا آخر سواك، أكثر ثقــلا منك، يعرف أني إن دفعت فسأدفع ثمــن حياتي وليس لإرضائك أو لفوزك... رأسي من سيفوز بالنهاية لا حذاؤك.

كــثُرٌ يمرون صوبي أو يقفون قربــي ليتبادلوا أحاديث لا تخص الشغل، الشغل الذي هو أنا وأمثالي. فنحن شغل هؤلاء الشغيّلة. بعضهم يضربني لأكتــم أنينــي أو صراخي لأنه يزعجــه. تحيّرني عدم لباقتهــم، ألا يرون أننــي لا أستطيع الانتقال بعيدا عنهم بحالتي هذه، فلماذا لا يبتعدون هم عنــي ويرتاحون من صوتي المزعــج؟! أنا لا أعرف منهم أحدا ولا أريد أن أعرفهــم، وهم لا يعرفوني ولا يسمح لهــم صاحبي أن يعرفوني. جميعهم يخاطبــون بعضهــم بعضا بكلمة: سيدي، فلا يعــرف الذي في وضعي مَن سيــد من، علــى الأرجح لا يوجد سيــد حقيقي هنا...، إلا أنــا. أنا سيد هــذا المكان الآن. أحتل منه مع سلمي ومــزق ثيابي المرمية أكبر مساحة. فضــاءات المكان تزدحــم بصراخي، رائحــة المكان هــي رائحتي: رائحة جســدي البشــري وإفرازاته، ولون المــكان اصطبغ بلون دمــي. أنا السيد

المطلــق لهذا المكان الآن، إن بحت بما يــروي غليله ستنتهي اللعبة، فلم لا يخاطبوني بـ«سيدي» طالما أنا سيد الأمر؟

صدّقــت أنني السيد هنا، لعبت دوري جيدا. بــدأت أخسر رأسي فبدأ فــوزي. قيل لي وصفة لهذا المصير أيــام النضال: أصمد بضع ساعات أو أكــثر، سيتعبــون وييأسون فتنجو، وربما تعود إلى بيــت أمك مكللا بالغار بطــلا، أو تعود مسجّى مغطى بالريحان شهيــدا: هذا هو فوزك العظيم. فاتني الــرد: لا أعرف أن أصمد وحسب... فأنا سأتألم وأذل وأتعب... وفي النهايــة سأساوم لأننــي لا أريد أن أكون بطــلا ولا شهيدا، ولو أردت ذلــك لــكان في غــير هذا المــكان القــذر وبغير هــذا الأداء المهــين. أنا لا أحــب الإهانــة والوجع فابحثوا عن غيري يهوى ذلــك وينشيه. وأنتم أيها اللاعبون هنا، ما رأيكم أن نعود قليلا في الزمن إلى الوراء فأمسح ذنبي من تاريخي ونعود أصحابا وأحبابا: ماذا ستخسرون جميعكم، فلن يختل ميزان القوى بنقصان سجين أو نقصان مناضل.

أنا لا أذكر الآن ولا من سنين طوال، وجوههم ولا أصواتهم ولا قاماتهم. لا أذكر منهم شيئا. وربما أصادف بعضهم كل يوم، وربما أحدهم يسكن جــاري، دون أن أعرفــه. تقــول طبيبتــي إن الأمــر طبيعــي بالنسبة إلي، فذاكرتي لا تحتفظ إلا بما تجده مهما لاستمرار حياتي.

أنهى كل أشغاله، لم يبق غيري شغلا عنده، عاد يسألني أسئلته الغبية. وما الفرق إن كانت غبية أو ذكية، فليست هي الموضوع بل هو وجعي الذي وصــل ذروته منذ صرخــات كثيرة. حاولت الكلام فلــم أستطع إلا قليله، فاللســان يحتاج للعــاب لينزلق بأحرفه على الأسنــان والفكين، ومن أين آتيــه بلعاب يكفي لجملة، ولساني مشطور مــن صفعة الأمس إلى لسانين أحدهمــا كبير والآخر صغير نازف. جف لعابــي على سقف حنكي وصار بسماكــة احتاجــت مني عدة أيــام بعد ذلك غسيلا وفــركا وتمطّقا حتى زال. وأنفــي سد بيباس جارح احتــاج وقتا أكثر من فمي حتى انفتح. كان

علــى فمي وحده حينها أن يقوم بكل أفعالي: منه أجيب ومنه أصرخ ومنه أتنفس وبه أعض زنودي.

هــل يعــذرونني الآن قــرّاء عبد الرحمــن منيف وغيره ممــن كتبوا عن السجــن، لأنني رميــت روايته شــرق المتوسط مرة أخرى بــكل قوتي إلى الحائط، وبعد قليل قمت وتناولتها بهدوء، وبنفس الهدوء مزقتها بتشفٍ. هــل يــدرك البعضــ الآن جريمة ثقافتنا التــي زيّنت السجــون لشبان في عمــر الــورود حين أطلقتْ علــى السجن اسم المعتقــل لتضفي عليه تميزا حلــو المنال، وجعلتْ من ألمه متعــة سمتها ضريبة النضال، واعتبرتْ ذلك تضحيــة فأسموهــا ثقافة التضحية بــدل ثقافة الانتحــار والموت: ضحوا بأنفسكــم يا شباب الأمة، ضحــوا في سبيل الوطن. فالوطن الذي لا يُبنى بالمعتقــلات والدماء والأرواح لا خير فيه، وكأن الوطن غير هؤلاء الشباب وغير شبابهم. هذه الثقافة هي نفسها التي ارتبكت حين انسحاب الجيش الإسرائيلــي من جنــوب لبنان بطريقــة مخالفة للدرامــا السورية. وهي نفسهــا التي لا تقبل الآن انسحاب الجيش الأميركي من العراق بالحسنى بــل بإزالته تحت وابل رصاص الكلاشنكوف، حتــى لو مات دون ذلك كل العراقيــين... لربما حينهــا تأتي فرصة تأميم بــترول العراق للعروبيين والعودة إلى شعار: بترول العراق للعرب وليس للأميركان.

ذهــب صاحبي وطالــت غيبته وزادت آلامي وصــرت انتظر عودته... عــودة الفرج. عشت وجعي ثانية وثانية، لا يمكنني عيشه بالدقائق فماذا سأفعل إذن خلال الستين ثانية. أخشى أن أدمن الألم والضرب والعذاب: ذات مــرة بعد هذا اليوم طلبت من صديــق ونحن نلعب الكوتشينة، وكان أضخم من عنتر بقليل وأقوى منه بقليل، طلبت منه في لحظة أن يضربني إذ شعــرت بحاجة للألم وللضرب. أجاب رغبتي واستمتع عابثا، وارتحت مــن حاجتــي. بعــد سنين طــوال نَظِفت من هــذا الإدمــان دون مساعدة طبيبتي.

خفّـت الحركة حولي. خـفّ الشغل. أسمع بين صرخـة وعاشرة صوت أقدام أظنها تحمل فوقها جثة الفرج. تتجاوزني الخطوات أو تنقطع دون وصـول، يخيب ظني وأعود إلى عـد الثواني: ثانية فثانيـة فثانية فثانية. انقطعـت الحركة حـولي، عرفت أن وقت الشغل انتهـى وعرفت بعد أيام أن هـذا وقت الغـداء ونهاية الـدوام. بقيت الشغل الوحيـد غير المنتهي، وانتهـى أملي بعودة صاحبي عندما سمعت من يسأل عني ولمن أنا. وسأل ثانيـة وأين صاحبـه، قالوا ذهب إلى بيته. طبعا هـو صاحبي أي مالكي، هكـذا هـي القسمة في هـذا المكان: أنـا الآن باستلام هـذا البطل، يمنع الآخرين عني ولا يسمح لهم حتى بسؤالي عن اسمي، أنا في حمايته الآن. انتهـى الحديث وانتهى الأمل. كذّبت الخبر وقلـت: حتى لو كان صحيحا فسيأتـي الآن بديلـه أو وكيله، فلا بد أنـه أوكل أحدهم بي وكل ما أسمعه ليسـ إلا مسرحية مفضوحة يريدون تهويلي بها بعد أن أضنيتهم وشققت صفوفهـم، وما هي إلا لحظـات حتى يأتي هو أو وكيلـه ويفكّوني... نعم يفكوننـي، هذه هي الكلمـة المعتمدة هنا وهي المعبّرة عن واقع حالي، فأنا لست أكثر من مربوط. لست إنسانا أو حيوانا ولا صاحب اسم أو جنسية. أنا مجرد مربوط وحسب، لا تقوى كينونتي هذه غير أن أكون إما مربوطا وإما مفكوكا... طالت الصرخات ولم يأت أحد، لا هو ولا وكيله.

صـرت وحيـدا، وصار صوتـي منفردا: صـراخ سولو. لم أعـد أحتمل الآلام: مـاذا أفعل أنا هنا؟ ولماذا جئت؟ الجواب: لو قال كل منا لا علاقة لي بما يجري حولي، فمن سيضحي إذن؟!! هذه الإجابات الجاهزة كانت الوحيـدة في ذهني...، آه لـو أستطيع لقاء أمي لبضـع دقائق أشرح لها أننـي لم أفارقها رغبـة بذلك أو نكرانا لحنانها، بـل سأقول لها: يا أمي، قادتي قالوا لي: لو كل منا استجاب لنداء أمه وكان بطلها وغزالها، فمن سيكون بطل الوطن أو مربوطه، ونحن أمة لا تقبل صغار الأبطال؟ وماذا يعنـي أن أضحي، ولمـاذا التضحية أصـلا؟ يجب ألا يضحـي أحد. لسنا أضاحي. هل دوري حقا أن أحمي رفاقي؟ وكيف أحميهم؟ ولماذا أحميهم

ولا أحمــي نفسي؟... كفــرتُ فاستغفرت. هل أريــد أن أكون بطلا، لكن بعيون من؟ بعيون أمي؟! أصلا أنا، وكلنا، كذلك: القرد بعيون أمه غزال. فكلنــا قرود ترانا أمهاتنا غزلانا، ما عدا قلة ترانا وأمهاتنا قرودا، وترى نفسها وأبنائها غزلانا.

تركني وذهب! هل استسلـمَ وأعلن هزيمته؟ أين الحَكَم ليصفر نهاية المبــاراة؟ سأتنــازل عن فوزي وأقبل بالتعادل، بـل بالهزيمة... المهم أن يصفــر الحكم. لكنــه الحكم واللجنة. لقــد اعتبر زمن اللعــب مفتوحا، واعتــبر أن الملعب يبدأ عندي وينتهي حيث يكون، لا حدود له ولا خطوط. تركنــي، تحرقني قطـرات دمي التــي تتمكن مــن التسلل عــبر أربطتي، متجهــة إلى قلبي الذي افتقــر إلى دماء تكفيه نبضــا. قطرات دمي هذه كانت أقسى آلامي. كانت حارقة قاتلة رغم أن غايتها الإبقاء على حياتي. كان كل من يلمس السلّم من هؤلاء الموقوفين الطراطير ذوي التهم التافهة الذيــن يقومون هنــا بأعمال التنظيف والسخرة، ومنهــا جاءت تسميتهم «سخــرة»، يتسبب بمرور قطــرة دم عبر شراييني فــأزداد صراخا وألما، هؤلاء المساكين عليهم أن ينجزوا التنظيف في أسرع وقت دون أن ينظروا إلي أو يرأفــوا بــي أو يحكوا لأهلهم بعد خروجهم عمــا رأوه، وإلا لاتهموا بخيانة الوطن الكريم... وطن الجميع.

أيــن صاحبــي؟ فليــأتِ وليأخــذ مــا يريــد مقابــل خلاصــي. فهؤلاء الذيــن حولي والذين يحاولــون إسكاتي ضربا ولكمــا لأني أنغص عليهم استراحتهــم، هــؤلاء لا يحق لهم فكــي حتى لو اعترفت، بـل لا يحق لهم سؤالي عن اسمي. هؤلاء لهم زعيم أيضا سمعته يتصل بالهاتف ويعرض أمري على أحد ما، هو سيده على ما يبدو. تعشّمت خيرا وانتظرت، وطال انتظاري وطالت صرخاتي، من دون أن يبحّ صوتي، ولن يبحّ لأن صراخي يأتــي من مكان ما وعبر شيء ما غير الحنجرة والحبال الصوتية. فقدت طاقتــي على الاحتمال. فاقت آلامي حدود بشريتي فأردت أن أقلب نفسي مع السلّم لأقتل ما بقي فيّ من جسد. لست الوحيد الذي يقدم على ذلك،

فمازن، في وقت لاحق حين كان في وضع يشابه وضعي، ألقى بجسده من الشبّاك لطابق منخفض ظننا منه أنه لطابق عالٍ. لكن هذا الارتفاع المخادع الغشاش لم يكفه إلا لسقوط تافه كلّفه عقابا على فعلته هذه مضافا لاستحقاقه الطبيعي من التعذيب. خانني السلم فهو رغم توحده معي بقي وفيا لأصحابه. إنه مصنوع كي لا يقلبه المشبوح ويقتل نفسه بإرادته دون إرادتهم.

لم يأت أحد. انتهت مقاومة جسدي. بدأ يختلج بقوة ومن دون انتظام، صار السلّم يهتز معي رغما عنه ويصدر صوتا عاليا من احتكاكه وارتطامه بعارضة الحديد المتكئ عليها. ضاق ذرعا بي. فأعلن صوت إنذار مثل صفارة طنجرة الضغط: يفهمون أنه إنذار اقتراب نهايتي، فسارعوا ثانية إلى الهاتف، تحدثوا مع أكثر من سيد لهم، أخبروهم خطورة الحال. نزل أخيرا واحد من الأسياد وقرر بعد المعاينة أن يفكوني ليس إنقاذا لحياتي بل لأن ترتيبات موتي تتطلب منه وقتا أطول من ترتيبات فكّي، فهو المناوب الآن ويريد أن يعود إلى نومه.

رموا السلم، وأنا معه، بقوة على الأرض. إنهم يثقون بقوة وثبات سلمهم كثقتهم بموقفهم... وكانت صرختي الأخيرة، تلك الصرخة التي لن أنساها يوما، أفزعَتهم فقطعوا مرابطي في لمحة بصر واندفع جسدي إلى الخلف أمتارا. هكذا شعرت، لكن الأمر كان غير ذلك. فدمي هو الذي اندفع فيضانا في أوردتي مسرعا صوب قلبي الذي انتفض منتبجا بصوت مسموع. وكانت النشوة... نشوة دم الحياة، نشوة إكسير الحياة، نشوة تفوق أي نشوة عرفها البشر والحيوان. في ما بعد اشتهيتها ولم أنلها. اشتهيتها مرارا ولم أصرّح بذلك لأحد. الآن أشعر أني لا أشتهيها بل أتقزز منها. لكنني من يومها أحببت جسدي واحترمته واعترفت بحقه أن أكونه ولن يكون زائدا عليّ.

عندما يكون الفعل السياسي ضمن المستوى الأمني فقط يكون السجن

ميدانــه وليس البرلمان. والثقافة السياسية السورية التي نبذت الليبرالية وبرلمانهــا، أحالت الفعل السياسي إلى صــراع أمني عنفي. وصار النصر الأمنــي هو الغاية: طرف ينتصر بملء السجون وآخر ينتصر بعجز الأول عــن فــوزه ذاك. فالسرية التنظيمية تــبرر العسف الأمنـــي، وهذا بدوره يوّلــد سريــة الكلام وليســ التنظيم فحســب. هي حلقة واحــدة تربطها ثقافة سياسية استبداديــة تأخذ بحكم القوة وليس بحكم العقل والبشر. وتحت أقدام هذه الثقافة أُزحن أنا وغيري وكلنا. فالخلاص من السجون طريقــه ثقافة التسامــح، ثقافة اللاعنف. ويتجلى ذلــك في الموقف البيّن مــن مقابر صــدّام الجماعية التي لم تستطع ثقافتنــا تلك اعتبارها أكثر مــن حادث معيب في تاريخ الأمة المشرّف. وأظننا لم نصل بعد، ولم نهتد إلى الطريق.

تعالوا نحطم ونكسّر ذاك السلم وسأساعدكم في ذلك حتى لو حولتموه إلى وقيد لتشووا عليه الإمبريالية والصهيونية والعولمة أيضا. ويمكنكم أن تشــووا على ناره غزالا بريا، فلن أقاسمكــم الوجبة لأني لا آكل من شواء وقيده بقايا من دمي وعرقي وعصارتي.

تعالــوا نتوب جميعــا عن أفعال ليســت إنسانية، بل هــي تحت الشرط البيولوجي للثدييات.

٣ تموز ٢٠٠٣

المحبوس

مـن فَقَدَ عزيـزا يعرف وجع لحظـة الفقْد: يرفض تصديـق الواقعة، يشـك بصحوه، يفقد مهارات النطق والتفكير. طوفان وجعه يسوّي عنده بين كل الأشيـاء والأسماء: الاحترام والمهانة، العـذاب والرضى، الحياة والمـوت: لا يموت لحظتها لأنه لم يعتد الموت قبلا ولم يعرفه جسده. يهيم بـلا أسئلـة ولا أجوبة، يهـذي من دون اضطـراب ولا حمـى. لا يشعر إلا بروحه الموجوعة. تضيق الدنيا وتُطبق على روحه الصغيرة.

هو، دفعني لأنزل على الدرج الأصفر الضيّق مكبل اليدين خلف ظهري بحديد صقيل مصنوع في إسبانيا، يكتبونه قيدا ونسميه في بلادي كلبشة. لا أعـرف من أين جئنا بهذه التسميـة ولا يهمني ذلك، فأنا أكره الحديد طوال عمري، أفضل الخشب عليه. كانت درجات الدرج صفراء وجدرانه صفراء ورائحتـه صفراء تنبعث من أسفل، شعـرت بها تقذفني درجتين للخلـف، للأعلـى. دفعني من ظهـري آمِرني بالتقـدم، للأسفل. حاولت الإطاعـة والنزول بضعة درجات وإذ بكتلـة رائحةٍ صفراء أخرى تدفعني ثانية، تراجعت ملتفتا إليه لا أسأله معنى الحال ولا أسأله الرحمة بحالي، بل لأطمئن إن كان سينزل معي إلى قلب تلك الرائحة التي لم أشك للحظة أنهـا رائحة موت عفن موبوء بـكل القذارات، إنها رائحة موت ملوث ليس لها من رائحة الموت الرباني قرابة.

الساعات التي سبقت نزول الدرج كانت وقتا ملتبسا قضيتها في الطريق من اللاذقية إلى دمشق مكبـلا بالكلبشة الإسبانية راكبا سيارة فرنسية يقتـادوني مسلحون عرب. لا أذكر من تلك الرحلة أي شيء: لا الأحاديث

التــي دارت بــين هؤلاء المسلحــين ولا الأغاني التي استمعــوا إليها، ولا إن كانوا أطعموني أو سقوني ولا إن كانوا سألوني أي سؤال. كل ما أعرفه أنها كانــت ليلة تموزية، ولا أعرف إن كانت حارة أم رطبة. كان ذهنـي مشغولا طــوال الوقــت يطامننـي: طالما هؤلاء المسلحــين لا يعرفون سببا لاعتقالي فربما لم يُكتشف سري، وليس ما أنا فيه غير لعبة قدر ليس فيها للجدية والأذى مطرح. وكنت أتحين فرصــة سينمائية تمكننـي من الهرب لمتابعة النضال.

هو، دفعني من جديد بقسوة تشبه قسوة الكلبشات التي تشد معصميّ، فلــم تقو ساقاي إلا هبوطا سريعا حماني من السقوط. ولجتُ دوامة تلك الرائحــة في لحظة... في جزء من الثانية، فزالت عني غرابتها. وكأنني في أحد أفلام الخيال العلمي حين يدخل الإنسان إلى دوامة الزمن فتعيده إلى ماضــ غابر أو تنقلــه إلى مستقبل مجهول، حســب إرادة المخرج، أو حســب إرادة المُدخل إن كان على هذا الــدرج. إنها دوامة لنقلي من زمن الحيوات إلى زمن الموات. لحظة إيلاجي هذه لن تفارق روحي ولا ذاكرتي ولا شخصيتي يوما. لحظة الفقد الأكبر... فقداني حريتي.

لم أشعــر بخسرانهــا لأني لم أشعر يوما بهــا أو بامتلاكها، لم أعرف حريتــي قبل هذه اللحظــة، عرفتها حين اُنتزعتْ مني إلى غير رجعة، مِنْ فقْدهــا عرفتهــا: وجعــا في الروح... قلبــا ثقيلا يخبط هابطــا في فراغ أفسحتــه له الأحشاء. ضغطتُ خواصري أضيّــق فراغ قفصي الصدري، أخفف من وجعِ خبيط قلبي، أردته أن يسكت أو يسقط أو يهجرني. تأبى، يدافع عن فقدان ما جهلته طوال «نضالي»: إنها حريتي.

لم أعــرف تسمية شعــوري بالفقد يومها، ولا بعد حــين، بل بعد حينين أو أكــثر، حــين رأيته جليا في فجر يــوم صيفي على سلــم طائرة تصعده امــرأة عايشتهــا دون أن أنتبــه إن كانت صديقتي أو طبيبتــي أو معلمتي، وربمــا ابنتي أو أمي. كنت أشعر بها تولّد طاقتي وحماستي ولا أعرف من

تكـون. تخطو ببطء الفراق، ويـد الفقد تشدها من أعلـى السلم. تلتفت صوبـي مودعـة: سأشتاق إليك و... «بحبك». انوجعـتّ الروح إذ عرفتُ أنهـا امرأتي، وليست شيئـا زائدا عني. عرفتُ ذلك مـن همسة. عرفت أني لـن أعـود أنا بعد هجرانها... سأكون بلا امرأتـي: لن أكون رَجلها. وعرفـت أن هذا الشعور هو الفقد، فبـدأت أكتب فقدي، لاعناً كل سلالمه وأدراجـه فلولا ذاك السلّم لمـا استطاعت امرأتي الصعـود إلى الطائرة تهجـرني، ولولا ذاك الدرج لما هوت حريتي في ذاك القرار. كانت امرأتي ستهجـر راجلة، يمكنني اللحاق بها وضمهـا، وكانت حريتي ستفلت مني في مقهى، لأجدها في فنجان قهوتي واشربها.

كنـت صغيرا، حينها، لأعـرف أني من دون حريتي لسـت إنسانا، فلم أحافظ عليها، وفوتّها. وكنت كبيرا، بعدها، لأعترف أني من دون امرأتي لـن أكون رجلا، فغفلت عنهـا، وفوتّها. كنت مسكينـا لأني لم أعرف، في الوقـت المناسب، أن حريتي هي أناي، وأن امرأتـي هي رجولتي. ومفوَّتا، لأن مـا عرفته جاء في لحظةٍ، حين لا ينفع الإدراك في التقاطها آن تدخل في زمن الفوات، حيث لا يوجد غير الأسف أكواما تفوق القامة والأمل، لا يمكنه أن يعيد حريتي ولا امرأتي.

بإيلاجـي دوامة رائحـة السجن دخلت زمن السجـن: لزجا، دبقا، له طعـم الصديـد ولون الصديـد ورائحـة الصديد وملمـس الصديد، ولا صوت لـه. يملأ كل كيان السجن حتى مجاريره. متكون من تكاثف ذرات زمنيـة بليدة لا تحب الحياة، هـو لمامة أزمنة الألم والذل والمهانة المبعثرة في حياة البشر. فإن استشعرت إحداها وجود بناء، أي بناء، إسطبلا كان أم مستشفـى أو مدرسة، له أبـواب حديديـة وإدارة سجنية، تنادي على أخواتهـا، فيتنادين ليملئن المكان قبل مجـيء المساجين، ليصبح سجنا. كل ذرة مـن زمن السجن دخلت سجنـا لا تخرج منه أبدا ما دام الحديد أبوابا له.

يبغض زمن السجن السجناء، يعتبر أن المكان مكانه وهم دخلاء! وكأنهم جاؤوه بإرادتهم. يعاديهم وكأنه من دونهم يمكنه أن يكون. ويبدأ صراعهما على المكان: كلما زاد عدد السجناء ضاق السجن على زمنه ليستشرس أكثر ويطبق على السجناء، ويحوّل سجنهم حبسا أكثر. زمن السجن لا يكل ولا يمل، يُنهِك السجين، ينهنهه، يريد أن يدخله ليعوض خسران المساحة. يشعر السجين ويحس بأن زمن السجن يحاول دخوله من فمه وأذنه وشرجه وأنفه ومن كل فتحة وثقب فيه حتى من جراحه. لكن ليس في يده حيله، ولمقاومته حدود. فإن طال الوقت يُنهكُ السجين ويرتخي، فتتشرع أبوابه واحدا بعد واحد أمام زمن السجن، فيدخله تاركا على أول مدخل يلجه بواسير لا نجاة لسجين منها، إن طال سجنه. فسنوات السجن يمكن أن تحسب لسجين، إن نسيها أو أنكرها، من عدد بواسيره وطولها، كما من انمحاء تلافيف مخه وتسطح ثنايا ذاكرته حيث يحلو لزمن السجن أن يقضي على همّة السجين وأمله، ويصيّره محبوسا.

لا يُشترط على البشري ليصير سجينا أي شرط: لا جنسيته ولا جنسه، لا دينه أو طائفته أو اعتقاده، لا لونه أو عمره، لا سليما، أو معلولا، أو مشلولا، أو حتى لو كان متهتك الدماغ لا يقوى على فعل إرادي كالبلع والبول والنطق والتغوط، فقط يكفيه أنه يتنفس وقلبه ينبض ولو كل يوم نبضة...، كأشخاص صادفتهم وعايشتهم في سجني، ولمستهم فعرفت أنهم كائنات بشرية حقيقية وليسوا من جبصين.

قلت لا يُشترط تاركا الفاعل مجهولا لأني أجهله، فلا أعرف أبا ولا جدا لسجوننا. كلنا نتبرأ من مسؤوليتها ومسؤولية إنهائها. عذرنا أننا أمينون على إرث آبائنا، محافظون على هويتنا، لا نخجل من أبنائنا عندما نعلمهم عظمة قادتنا وأمرائنا حين يأمرون بحبس الناس وجلدهم. فالتعذيب عندنا حلال طالما نزل على عدو، أي عدو نقرره. فنحن لم ننجز رفضنا ونبذنا للتعذيب، نحن نستنكره عندما ينزل بنا فقط. فإن

كان ابـن خالة لنا عَذّب غيرنـا ولم يعذبنا، استقبلنـاه في صدور بيوتنا، تشفـع له قرابة الدم، الذي لا يصير ماءً، أو حال الدنيا التي نقرأها: أنه لم يكن، دائما، في الإمـكان أفضل مما كان. «ليس التعذيب من كبائرنا، ولم يكن كذلك يوما، نحن أبناء الشرق أو أبناء العرب أو أبناء الإسلام أو أهـل التخلف. بل كثيرا ما نحلله إن وقع على غيرنا ولو كان ذلك بأيدينا. ولا نستهجنـه إلا إن وقـع علينـا بأيـدي غيرنـا كما حصـل في سجن أبو غريب»... «ربما لا نمجد التعذيب ولا ندعو له علانية، لكن بكل تأكيد لا ننبـذه ولا نعتبره فعلا حراما، ويمكننا أن نجـد في خطابنا الشفهي عند كل الجهات وعلى كل المستويات عبارات وكلمات تبارك التعذيب والإساءة الجسدية للخصوم، ويسهل علينا اتهام الغير بالخصومة. وغالبا لا نهتم لأمـر التعذيب كونه يقع على الأفـراد وليس على الأمة، التي نرى تحققها مستقلا بشكل نهائي عن تحقق الفرد، الذي يقتصر دوره في ثقافتنا على أنه مكلف بحمل رسالة الأمة».

وحدهـم السجنـاء، أو بعضهم، يرفضون التعذيـب، لأنهم ذاقوه على أجسادهم، أو سمعته آذانهم فبكت عيونهم خوفا وذلا. هم وحدهم أدركوا أن الإنسان هو المخلوق الذي اخترع التعذيب، وهو الوحيد الذي يمارسه. وتأكدوا أنه المخلوق الأكثر احتمالا للتعذيب، أكثر من الحمار، تعينه عليه إرادة الحياة، أو الأمل فيها. وعرفوا أن التعذيب لا حاجة له باللغة، يتحقق التفاهـم فيه بأصوات حيوانية تكتفي بذاتها من دون النطق أو الهجائية. يتشابـه، في هذا المجال، مـع الموسيقا والرقص والقُبـل. يتواصل طرفاه بربـاط حميمي، فيشعـر كل منهما بحـال الآخر مـا لا يستطيع غيرهما الإحساس به. فالصرخات والصيحات والنهدات التي يطلقانها، وصوت الكربـاج وصريـر السلّم والكرسـي، وطقطقة الكلبشة وأزيـز الكهرباء، وتكسـر عظام الصـدر وانفقاع غشاء الطبل، ورائحـة الدم والعرق، هي لغـة وصالهما، بها يشعر المجلود أن جلاده في لحظة قرر قتله أو إعطابه، فيلتف بمناورة اعتراف يحمي روحه أو جسده ببوحها. أو يشعر أن جلاده

سيفكّـه بعـد لحظة أو لحظتـين، ليس كرمــى له بل لانشغالــه بموعد مع عشيقــة قبيحة. والجلاد، أيضــا، يشعر من ذاك الوصال إن كان مجلوده قارب أن يقر بما يسره، أو بحاجة لشِدة أكثر وأطول.

كل سجــين، وأي سجين، يبدأ من لحظــة نزوله الدرج عد أيام سجنه. وكأن ذلــك يقّــرب نهاية السجــن. ففــي الأسابيع والأشهــر الأولى يقول حصيلــة سجنــه بالأيــام وليســ بالأسابيــع، متوخيا الدقــة. وبعد مضي الأشهــر السقيمة يتخلى عن الدقة، ويصــرح عن مدة سجنه بعدد أشهر صحيح دون ذكر أنصاف أو أرباع الشهر، بل يجبرها لصالح سجنه وليس لصالــح حياته. وهذا ما يفعله أيضــا مع السنين التي يمضيها، فالسجين لا يعيشــ سجنه بل يمضيــه، لأن علاقته مع سجنه علاقــة زمن وتعداد، وليست علاقة تعايش. فالذي يعيش شيئا فإنه يفعل فيه، ويقاس عيشه في كل المقاييس بمــا أنجزه وما فعله وليس بالزمن الذي أمضاه فيه أو معه. أمــا السجين فلا بد أنه هو من اخترع الأعداد، بل والتعدد، عندما لاحظ تبايــن السجن والحيــاة وأنهما اثنان ولا يمكن أن يكونــا واحدا. وعندما خــرج من السجن وجد أن كل السنين التي أمضاها سجينا هي صفر يوم في الحياة، فكان له اكتشاف الصفر.

لســت أنا ذاك السجين الأول، لكنني كنــت أولاً. فكل سجين هو سجين أول. أعــدت اكتشاف السجن، مثل غيري، مــن جديد. لم أقبل ولم أسلّم باكتشافــات السابقــين، ففي السجن لا يوجد معلــم ولا خبير ولا صاحب طريقــة، إنه يسوي بين الجميع، إلا في استثناءٍ عرفوه سجناء غيري كانوا مــن تيارات صنفــت «يمينية»، فأولئــك عرفوا سجنــا مسجَّنا غير الذي عرفته وأشباهي المصنفين «يساريين»، حيث كان بين أيدينا أدوات أعانتنا علــى زمن السجن مثل الراديو والموقد والكتاب والدواء وزيارة الأهل، أما هــم فقد فقدوا ذاكرة الحضــارة من هول ما مر بهم، وعادوا إلى ما قبل اكتشاف النــار فنسوا أن البشرية أنتجت طُبــاً وأدواته وعقاقيره، وظنوا أنفسهــم أول من اكتشــف جهازا لقياس ضغط الدم حــين صنعوا واحدا

من عدة أمتار من خراطيم المياه وأشياء أخرى، ثبتوه إلى الحائط بقدرة عجين الخبز وأنهم أول من عرف الجراحة حين سرقوا قطعة معدن صغيرة من إحدى ساحات الموت وشحذوها أياما على الجدار لتعينهم على شق خواصرهم واستئصال زوائدهم الدودية الملتهبة... فسجانهم لا يعترف بوجودهم فكيف سيعترف بزوائدهم الدودية. هؤلاء أخجل منهم إن ادعيت قسوة في سجن لم أعرف فيه خطرا على حياتي إلا أيام التعذيب التي يمر بها أغلب السجناء كفاتحة لسجنهم، أما هم فقد عرفوا قطعة من الجحيم حيث يموت الواحد منهم مرارا ومرارا ويُعاد مرارا ليذاق عذابا أفظع. أصمت أمام صمت هؤلاء الخائفين وأكتفي بالبوح عن فقدي وعني كسجين وليس عن السجن.

بعد سبع سنين إلا لحظات من نزولي ذاك الدرج، نزلت درجا آخر يدفعني قرار بالإفراج عني وعن عشرات من أشباهي. لم ألتفت للخلف هذه المرة، ولا أذكر أني نظرت للأمام، أذكر فقط أن الدرج كان نزولا، وفي مخيلتي أن كل الأدراج في السجون هي نزولا حين ندخلها وحين نخرج منها، فلا أذكر أني رأيت أحدها صعودا. لدرجة أن مفهومي عن الامتداد السجني هو أدراج نازلة، وأنا، للآن، أتوخى في سيري أن أهوي من أعلى درج قد لا يكون نازلا.

أعادوني، هم، إلى بيتنا، تقديرا لعلاقة قربى تربط أحدهم بوالدي. قال لي الرجل: ها أنت خارج السجن! بدا لي هذا واضحا مذ دخلت تلك البناية حيث بيتنا الذي لم أعرف غيره منذ عرفت الحياة. فشرقطتْ (حسب اللبنانيين) الصيحات والزغاريد مهللة بعودة «البطل»، والتمّ حولي كومة من البشر تجاوزتهم مسرعا للقاء أمي التي تنتظر قدومي منذ ثلاثة أيام، فخبر كهذا يلتقطه أهالي السجناء من تحت الألسنة. لن أتحدث عن هذا اللقاء فأنا أضعف من إخباره مثل صديقي منصور، أو ربما نسيته، وربما لم أقل لها سوى كلمة واحدة: التوبة يا أمي لن أعود لفعلتي مرة ثانية، أقسم لك ألا أسجن بعد اليوم. فربما يتعاهد البشر من

بعدي علــى ألا يُبعِدوا شابا عن أمه سجينــا، فينتظروها لتموت وينهشوا عمره.

لم أتفقد حريتي لحظة خروجي من السجن، لربما ظننت أنهم سلموني إياهــا مــع أوراقي وأشيائي التي صادروها مني مــع حريتي يوم اعتقلوني ووضعوهــا جميعها في مستــودع الأمانات. وكانوا أمينــين حين أعادوا لي مفاتيحــي وهويتــي وكل قصاصــة وكركوبــة صادروها يومهــا. لكن هذه المفاتيح لا نفع منها بعد أن تغيرت أقفالها بعد هذي السنين، وتلك الهوية وإجازة الســوق وبطاقتي الجامعية انتهت مدتها جميعها، أرقام الهواتف تغيرت، بطاقات ركوب باصات النقل العام التي كانت في محفظتي لم يعد معمــولا بها، فجميعهــا لا يسدد أجرة ركوب واحدة بعــد ارتفاع الأسعار. حافظــوا لي علــى كل الأشياء عديمة النفع وأعادوهــا لي جميعها... إلا حريتي بقيت عندهــم، مزقوها ملايين المزق: مزقة في سجل هنا، ومزق في سجــلات أخــرى، مزقة بمنعي مــن السفر، ومزقة بمنعــي من العمل، مزقــة بخوفي مــن كل مسلح حتى شرطــي المرور، ومزقــة بخوفي من كل لباس موحد حتى كراسين المطاعم. لن تنفعهم مصادرة حريتي إلا أذية لي. حريتي كروحي لا تصلح لغيري، وعليهم أن يعيدوها لي ذات يوم، إذ لا يمكننــي التنكر لهــا، ولا يمكن أن أكون من دونهــا، وستبقى وزراً تثقل أرواحهم.

تلــك البناية التــي يسموها أهلها بنايتنا أعرفهــا كجسدي، أعرف كل مسطحاتهــا وبروزاتهــا. وجدتهــا على حالهــا: لم تزد أحــدا ولم تنقص أحــدا إلا أنــا، وربمــا لم أنقصهــا. عشت فيهــا كل حياتــي: عرفت فيها تمردي الأول وعشقي المجنون الأول، وهي تعلمت مني أول مرة كيف يكون التمــرد وكيف يكون العشق. أعرفهــا وأعرف كل هؤلاء الشباب والصبايا الذيــن استقبلــوني بأحضانهــم. تركتهم أطفــالا، وهــم الآن متباهين أو خجلين مــن ذقونهم الخشنــة ونهودهن النافرة. رقصــت معهم جميعا: ذكــورا وإناثا، أعرفهــم أو أجهلهم. راقصت نســاءً وصبايا يشعن حرية

لا يعرفـن قيمتها. تواصلت معهم بحركات جسـدي التي ألجأ إليها، عند ذروات انفعـالي، راقصا أو هائجا، فلم أكن قد عرفت بعد طريقة لكلام الطليـق، كل كلامـي كان قبل قليـل كلام سجـن: كلامٌ مسجونٌ. خشيت أذيتهم إن تكلمت، فاكتفيت بالنظر إليهم وملامستهم أتحسس حرياتهم لأتعـرف حريتي. تركتهـم يتمرغون على صدري وأكتـافي، تبلل دموعهم قميصـي، أظنهم كانوا يبكون حريتي الفقيدة. لم أفلح بتمثيل دور الحر. ربما فضحت عيناي هزيمتي وخسراني، أو أن الحرية تترك على جسدي بقايـا وعلامات كما المرأة، فبـدأت البحث عنها بـين الأجساد لتصوري أنهـا جسد طري ناعم يمكن أن أستشعرهـا وألمسها كما امرأتي: أضمها إلى صـدري فيتكور نهداها يحميـان أضلاعها من شدة شغفي... أغمر وجهـي في خصلات شعرها السود مخفيا دمعتين طافرتين فرحا بها... تغمـرني بذراعيهـا تلفان خصـري وأنفاسها الحلوة تلـف عنقي، ويزيّن كحـل عينيها الدامعتين قميصي بلطخة يعـزّ علي غسلها، متمنيا بقاءها علامة لحريتي: يميزني من يمر بي ويدل علي: هذا إنسان حر.

كل هذا الحشد حولي ولم أشعر بعودة روحي أو بشفائها. كان خروجي مـن السجـن حدثا مهما جـدا لا أكثر، لا يتساوى مع شعـوري يوم فقدت حريتـي، برغم ما قمت به مـن عجائب السلوك وغرائب الأمور لأستشعر حريتـي: غببت ما قُدم لي من خمور، لم أصدّ نخبا أو كأسا رُفع لي، لكن دون أن أتلمس فقيدتـي أو أنتشـي، بل أني لم أستسـغ كل هذه الأصناف مـن المشروبات، فعلى ما يبدو أني اعتدت مـذاق خمور السجن التي كان يصنعهـا السجناء من أي شيء، فحتى مشـروب وائل، الذي كان يسميه لاكيور ناطقا اسمه بفرنساويـة مقصودة، كان أطيب وأحلى وأقوى أثرا. بـل سبيرتو ياسر الذي كان يسقنيـه مخلوطا بعصائر لا أعرفها كان ألذ رغم أني كنت أتقزز وأكشر بعد كل رشفة، بل هي بلعة فالسبيرتو لا يمكن ارتشافه؛ وكان ياسر يجهد نفسه طوال الجلسة يقنعنـي أن هذا السبيرتو «غير شكل» فهو غير ذاك السبيرتو الذي شربناه في مرة سابقة.

كانــت خمرة السجن أطيــب وأثرها أقوى، لأني كنــت أشربها محاولا التحرر من حالة الحبس آملا مقاربة الحرية باستحضار ذكريات قديمة غائبة، أو نشوة تشعرني بطعم الفرح لحد أني رقصت غير مرة نشوة من دون موسيقــى حين لم يكن لدينا ما يصــدر الموسيقى بعد. رقصت وعلى حركاتــي ضبط السجناء الآخرون إيقاع صفقاتهم. كما رقصت أكثر من مرة من دون موسيقى ومن دون خمرة في بداية السجن، ككثيرين غيري، رقصنــا على وقــع ألم الكرابيــج؛ فبنهاية كل حفلة تعذيــب يضربنا عدة جلادين، يضربون كل مفكوك بعد أن يتخلص من رباطه، يضربونه على ساقيه وقدميه ويأمرونه شاتمين أن يرقص، ولا يبتغون متعة الفرجة على رقصه الأخرق بل لإعادة دورته الدموية إلى طبيعتها.

يشــرب الإنسان الكحول راجيا نشوة تنقله خارج تفاصيل واقعه المادي اليومي. وأنا شربــت الكحول ليل نهار خلال أيامي الأولى خارج السجن، ولم أثمــل. جسمي رفض الثمالة، لا يريــدني الخروج من تفاصيل حياتي الجديــدة، بل أرادني أن أغوص فيهــا ولا أهفو عن صغيرة من صغائرها التــي تَكبر كل كبريات السجن، خاف علــي العودة لحالي الحبيسة. كنت لهوفــا لكل شيء، ولم أغفل عن شيء أو أحد، ظننا أن الآخرين هم الواقع الحقيقي وأنا النشاذ.

كان واضحــا مــن لحظاتــي الأولى طليقــا، أني خارج السجــن! هكذا يقــول العقل ومنطقه، لكن الإحساس بذلــك لم يتكوّن، بل لم يبدأ. فعلت المستحيــل لأشعــر أني حرّ وأن حريتي علــى ملمس يدي أو بــين جنبيّ أو علــى بعد قبلة كتلك التي اشتهيتها عندما راحت أصابع امرأتي الراعشة تعيــد رسم خطوط وجهي غير واثقة من مصداقية عينيها مما ستحفظه من صورتي بعد رحيلها، فأرادت أن تثبّت انحناءات حواجبي وفمي تحت جلدها، دست تلك الأصابع الناعمة النابضة تحت شاربي تكتشف إن كنت أستر قبحا في شفتي لم تلحظه شفتاها، فباشتهائها دليل وجودها ولو لم

أصلهـا، فيكفيني من حريتـي أن أشتهيها لأتأكد مـن وجودها، فأعرفها وأمضي عمري شغوفا بها.

قدت سيارة لأهلـي في الليلة الأولى، وحيدا، عائدا إلى السجن، فربما حريتـي ليست جسدا بـل روحا نسيتهـا هناك في غفلـة ارتباكي ولهفتي للخـروج. فيمكـن أن تكون بقيـتْ هناك هائمة تائهة تبحـث عني وما إن تشعر باقترابي تطير لملاقاتي كما ابنتي ريما.

لم تكـن طريق العودة للسجن قصيرة، وكذلك طريق مغادرته. فأغلب السجون ترمى بعيدا نافرة عن المدن، أبعد من مكبّ النفايات، وبعضها إن صـادف ضرورة لوجوده قريبا داخل المدن يحفرون له أعمق من المجارير حتى إن طافت يوما لا نعرف كيف نحتمي منها، بعضنا يرفع الفرشات على ظهـره، كون ليس لدينا أسرّة كي لا نشبه البشر، وبعضنا يخترع الوسائل ليدفع بطوفـان المجارير خارج المهجع، وبعض آخر من المهندسين يحاول بناء السدود على بـاب المهجع، وآخرين استسلموا للأمر وقفوا يتفرجون على القذارة العائمة متندّرين غير قرفين، فالسجن أقذر.

كانـت السيارة بصعودها في طريق السجن تنزلق على المنعطفات، إما من افتقادي مهارة السياقة التي كنت أتباهى بها لدرجة أني تجرأت ذات مـرة في صغـري وجعلتها تسير على دولابين، وربمـا تنزلق لعدم تقديري خطـر تلك المنعطفات. وكيـف لي أن أقيم للخطر أهميـة في ذاك اليوم، فليس لشـيء أهمية إلا أن أجد حريتـي أو ألمحها أو أعرفهـا أو أشتهيها فقـط، لدرجـة أني بعد منتصـف الليل صدمت شاخصـة مرورية لا نفع منها، فلم أجد مثلها طوال سجني. وصادف أنها قرب بيت قائد الشرطة الذي يستلزم وجوده دوريات مرورية تطوف حوله ليبقى قائدها وهو نائم. اقتـادني رجال الشرطـة إلى فرع المرور ليوقفوني لسبـب ما لم أهتم به، ربما تخريب أملاك عامة، أو ربما لا يليق بمثلي أن يكون طليقا. اجتهدوا للعثـور على سبب، وأنا مغتبط بما يجري، فكل ما جرى ويجري يثبت أني

خارج السجن، فليس من العقل أن أسجن إن كنت مسجونا، رغم أن ذلك ممكـن الحدوث خـارج العقل في دائرة الجنون في بـلادي. الجواب على ذلـك أقل أهمية من الشيء الذي جـاءوني به وأسموه بالون عندما شموا رائحة كحـول تفوح مني، طلبوا مني أن أنفخـه فامتثلت مبتهجا لتعاطي اختراعات حضارية جديدة علي. نفخته بمتعة لا تصدق، والمفاجأة أنهم اكتشفـوا بواسطـة هذا الاختراع الـذي يتباهون بـه، لا أدري كيف، أنني ممتلـئ خمرا. هللوا إذ وجـدوا ضالتهم فرحين كأنهـم هم من اكتشفوا هـذا البالون، لكنهـم أغبى من اختراع بالون، وأغبـى من الاستفادة من الخبرات الوطنية، وإلا لرفعوا في وجهي كرباجا، بل تكفي صورته أو ذكر اسمـه، لكنت اعترفـت أني غبيت كل خمور رومـا، وأني أستأهل تحويلي إلى محكمة الأمن الاقتصادي كأحد مخربي الاقتصاد الوطني لاقتلاعي تلـك الشاخصة، ولوفروا ثمن هـذه البالونات البلهاء من العملة الصعبة ممـا يمكّن السلطة من الإصلاح الاقتصـادي والإداري وحتى السياسي. فهـذا خلـل في التنسيق بين الدوائر لعـدم تعميم التجربـة الأمنية، ذات الطابع الوطني، على كل قطاعات الدولة بما فيها المداجن والمباقر، كونها التجربة الوحيدة الناجحـة والرابحة في تاريخ دولتنا. والدليل على ذلك أن كل العاملين في القطاع العام الأمني (وإن بدا أنه قطاع خاص) أثروا واغتنوا وعجعجوا.

أعتقـد أن شرطـة المرور هي صاحبـة اقتراح أوليـة الإصلاح الإداري الـذي أخذت تنشـده السلطة لاحقـا. اقترحوا ذلك بعـد تجربتهم معي ليلتهـا حين توعدوني، من جهلهم بالخبرة الأمنية الوطنية، اعتمادا على بالونهـم، بالسجـن سبعة أيام. فخجلوا من قلـة خبرتهم وضعف بأسهم عندمـا سخرت منهم وأخبرتهم أنـه لم يمض سبع ساعات على خروجي من سجن لسبع سنـوات لتحبسوني الآن سبعة أيام! سأمضيها على رجل واحـدة... نعم أستطيع ذلك، ألم يبق صديقي حسن حوالي ثلاثين يوما علـى رجلتين! إذن يمكنني أن أبقى سبعة أيام على رجل واحدة. سأقترح

على حسن أن يسجل رقمه بسجل غينيس، ولا أعرف إن كان غيره أمضى أكـثر من ثلاثين يوما واقفا بزنزانة مربــوط اليد بسقفها، وحتى لو وجِد غــيره، ومن المؤكد أنهم كثر، فعلى غينيس أو أولاده أن يدونوا في سجلهم اســم أي إنسان رُبط ساعــة واحدة أو ثانية في زنزانــة. فالثانية هنا هي رقــم قياسي، هي عصّة القــبر الزائدة على الموت. وكأنه لا يكفي المُزنزن أن يكـون أسير اختراع بشري من الإسمنــت والحديد صمم ليتسع له ولا يتسع لحراكه، حتى يخترع بشريون آخرون عصّة قبر له فيربطون إحدى يديــه بكلبشة في سقف الزنزانة، ويتركونه واقفــا ويذهبون إلى أشغالهم كأنهــم لم يفقأوا عين الإنسانية. ويبقى المُزنزن هناك لوحده مع كلبشته، ليبــدأ بعد قليل عد الزمن، فتمر به أجزاء الثانية كما تمر الأيام في زمن الطلقاء.

لم أُربــط في الزنزانة ولا يمكنني أن أتخيل ماذا يفعل المُزنزن المربوط طوال الساعات بين وجبة الطعــام والتالية ليأتي السجان فيفك معصمه ليتمكــن من تناول الطعام وما يليه مــن طقوس الجلي والغسيل والتغوط، ويستمتــع خلال ذلك بنصف ساعة مــن دون رباط. يأتي بعدها السجان ليشنق يده، ومن دون كلام بينهما يقوم كل منهما بتنفيذ جانبه من العمل وكأن بينهمــا اتفــاق برضاهما عمــا يقومان به: السجــان لا يشعر بالإثم فالسجين يختار يده التــي سيمدها طواعية باقرا بطن الكلبشة، وكأنهما يتقاسمان مسؤولية شناعة هذا الفعل أمام التاريخ وأي شاهد آخر.

حســن لم يبدل يــده طوال أيام ربطــه... تطوعت يســراه أن تضحي بنفسهــا حماية لليمنــى لتبقى سليمة، فهــي التي، إن قُــدّر له وخرج من السجــن، سترســم وتنحــت وتأمــن الرزق لمــا سيتبقى مــن الجسد ومن الروح، ولحنين ونجاح.

لمــاذا رضي حسن بهذه التضحيــة، هل حاول إقناع يسراه حين يخلوان ببعضهمــا أواخــر الليل بعــد أن ينام غير المربوطــين ولا يبقى صاحيا في

الجنــاح إلا المربوطــين وأنينهــم وصرصرة كلبشاتهم. هــل بكى يده وهو يراهــا تبيّض وتزرق وتذبل ساعة بعد ساعة. هل كان يحدثها ويحكي لها حكايــات جدته أو حكايات الثوار. هــل عشّمها بالأمل، أم تمنى لها الموت السريــع لترتاح من الألم ومــن التقشّر والتعفن، أم شــد أزرها: اصمدي واصبري، فإن بقي فيك عرق دم أو خيط عصب سأحملك على كتفي بقية العمــر. وهل كانت يمنــاه تستغل نومه عندما كان يتدلى رأسه ويتكئ على زنده الأيسر المخضر، فتتسلل صاعدة إلى عند أختها محاذرة ألا تلامس الجســد كي لا يصحو حسن فتقطع عليــه غيبوبته. تريد أن تواسي أختها وتمسدهــا وتدلك أصابعهــا اليابسة علّ قطرة دم تخالــف إرادة الخالق وإرادة الجاذبيــة وتصعد تدفئ أطراف الأصابــع وتخفف من ازرقاقها. لا أدري إن كانــت تحاول أن تحشر نفسها مــع أختها في الكلبشة: خذيني معــك، لا أريــد العيش من دونــك. وأختها لا تنطق فقــد هدها السقم. لا أدري إن كان يمكــن للأيــدي أن تخاطــب بعضهــا، ولا يمكــن لحسن أن يفيدني في هذا، فبتلك اللحظات يكون نائما... مغمى عليه.

أي مربــوط في زنزانــة سيحاول أن يحمي يده بــأن يبقى منتصبا على ساقيــه، فهما أقوى مــن اليد وأثخــن، وعليهما يقوم الوقــوف. يمكن أن تتناوبــا، ولا ينقصهمــا الدم... بل يفيضــ عنهما لطــول ساعات وأيام الوقــوف، فيحتقنان دمــا ثقيلا عجــز في الصعود إلى أعلــى. فينتبجان وينتبجــان ليتحولا إلى اسطوانتــين من الركبة حتــى الأخمص، ليتشقق جلدهما وينفلق نازّا دما أسود وصديدا.

بــدا لي حــادث المــرور وقصته مزحــة، إذ نسيــت مفارقــات الحياة: مُبكيهــا ومُفرحهــا. التقط الشرطة الخــبر لينعموا برفــع سقف الرشوة التي أخذوها من والدي الذي كان مستعدا أن يهب روحه لبقاء ابنه عنده ليلتهــا. أنا لم أكن على بازار إفلاتي من تهمة البالون بين أبي والشرطة، لكننــي أظنهم كانــوا يحتاجون للمــال ليشاركوا الشعــب السوري فرحته بعودة بعض من ادعوا تمثيلــه والدفاع عن مصلحته التي يجهلها، لكنهم

لـن يصرفوا من مالهم الخاص لأنهـم ليسوا مسؤولين عن حبسنا. وهذا صحيح، فقد راجعت في سنوات لاحقة عدة محامين ومدافعين عن حقوق الإنسـان لأهتدي إلى المسؤول عن حبسي لأعاتبه وأطلب منه اعتذارا عن عقوبـة ليست مشروعة حتى في قانون الطـوارئ. فتبين بعد جهد البحث أن شخصا كهذا غير موجود، لدرجة يمكن الشك أن كل ما حدث لنا هو أننـا ضللنا الطريق، كوننا صغارا لا نعـرف دروب مدننا وقرانا، فوجدنا أنفسنـا داخـل سجون مرمية مصادفـة في طريقنـا، فاستمرأنا جمعتنا والمكان، لدرجة لم نقو على فراقه إلى أن جاء أشخاص اعتبروا أنهم ولاة أمرنا وأمركم أعادونا إلى صـواب طريق بيوتنا، وعاقبونا جرّاء ضلالنا فحرمونا السفر والعمل والعيش الأمين إلى يوم الدين.

بانت لي أضواء سجن صيدنايا من بعيد مبنيا على ذروة تلة. فأصحاب السجـون، عادة، يبنونها بنفور وقح على التلال أو وسط صحارى شاسعة بوقاحـة لا تناسب نكرانهم مسجونيهم. تهـادت السيارة دون انتباه مني وأنـا محدّق بوجوم وذهول في ذاك البنـاء المهيب الذي يحبس العديدين مـن أصدقائـي. أنـا أراه من الخـارج: إذن أنا لست فيـه، إذن أنا خارج السجن، أو ليكن كلامي أقل إطلاقية ويقينية، أنا في هذه اللحظة بالذات خارج هـذا السجن تحديدا. توقفت السيـارة فانتبهت من ذهولي ودرت بهـا مسرعا مـن دون تفكير ولا قـرار وعدت هابطا تلـك التلال بسرعة جنونيـة، قادت السيارة نفسها أو قدتها ببقايـا خبرات قديمة قاربت أن تكـون غريزية. لم أجرؤ على التفكير حتى وصلت أمام البيت، حاولت أن أفهـم سبب سرعة عودتي إن كانت هربا مـن أن يكتشفوا أمري فيظنون أني لا أقـوى علـى فراق السجـن فيستعيدوني، أم أني اعتـدت على رؤية السجـن من الداخل ولا أطيـق رؤيته من الخارج فخشيت من نفسي تتوق إليه فتجرّني أمضي سهرتي التي اعتدتها في المهجع رقم ٩.

لم أكـن وصلـت إلى جواب حـين لمحت صبية بين المحتفـين بي عيناها تلتهبـان شبقـا فتوجهت إليها أتمايـل رقصا مع الراقصـين، غير مهتم

بالوافديـن الجـدد وهم يأخـذوني بأحضانهم ويسألـوني لا أعرف ماذا ولا عـن ماذا؟ ولا أدري إن كنت أجبتهم وقـد لا أكون فعلت، حتى وصلت إلى صبيتـي. أمسكت معصمهـا بقبضة قوية، لم تكـن بحاجة لأكثر من ذلـك حتى تراخت وانقادت مع خطواتي صوب الباب غير منتبه لنظرات الآخريـن وإن كان تغامزوا على سلوكي الفحشي. عدت معها إلى السيارة أقودهـا في زواريب برزة، هـذه البلدة التي ولدتُ وعشتُ حياتي فيها دون أن أعـرف الانتمـاء لها، فلم أشعـر بالحاجة للانتماء لمكان إلا في عمر متأخـر، حين شعرت بحاجة إلى حي أو بلدة أو مدينة أنسب نفسي إليها. لم تبخـل برزة وأهلها علي بهذا الانتمـاء، لكن علني لا أعرف كيف يكون الانتماء إلى المكان، فربما هو رغبتي فيه وقبول أهل المكان بي ومشاركتي لهـم أيامـا وأعمالا: فقد صنعت مع أهل بـرزة الكثير من دروبها والكثير من أيامها: فعند هذا المنعطف سقطت عن الدراجة وضحك مني الناس، لم أجِد ركب الدراجة يوما وخاصة الانعطاف ناحية اليمين. وببعض هذه الأزقة كنت ألتقي أحيانا في ساعات الفجر بالمؤذّنين وهم في طريقهم إلى جوامعهم، ألقي عليهم التحية ويدي لا تخرج من جيبي قابضة على قنبلة يدويـة أحتمي بها من أي اعتداء أهوج لجماعات الأخوان المسلمين الذين نشطـوا كثـيرا في تلك الفترة في هذه الأحياء، ويـرد المؤذن السلام وكلتا يديه في جيبيه، فخوفه قد يكون أكبر من خوفي. لم يكن خوفنا من بعضنا أنـا وهو، إذ كنا التقينا مرارا في السابـق عندما كنت أحضر الصلاة في الجامع. وذاك الشارع المنار الآن بشدة كان مكانا مظلما قبل عشر سنين عندما كنـت ألوذ به لخلّوه مـن الناس الذين يخافـون الأمكنة المهجورة المظلمـة. لكن مثلـي، عندما ترضى صبيـة فاتنة أن ترافقـه ليختبئا في العتـم من عيون الأهل، لن يسأل شجاعتـه إن كانت حاضرة لارتياد هذا المكان ليتعرف علـى ملمس فخذي الأنثى: بدأتُهمـا بالركبة صاعدا نحو أعـالي ذاك العـالم بوجل وبطء لا يتخيله ميـلان كونديرا. كانت صبيتي تلبس فستانا كأنه خِيط لمغامرة يدي اليسرى تستغفل اليمنى المنشغلة بيد

فاتنتـي. لم يُصنع ذاك الثوب ليستر تلك الركبة المباحة... الركب دوما مباحـة فليس لها دور في الجسد إلا الانثناء، ونحـن كلانا، الآن، بحاجة لـكل تمدد وانفراج. قماش ذاك الثوب حيـك كي لا يصمد بين الفخذين ولا أن يضمهمـا لمنـع يدي من رحلتها، ما كان يمكنه إلا أن ينزلق محايدا بين يدي وخجلي وبين يـدي والتصاق الفخذين الذي لم يطلّ أمام فحيح يـدي، لينفرجا لمغامرتهـا الجاهلة بما ستكتشفه من مغـاور مرصودة لا ينفع لمغادرتها ونسيانها لا افتح يا سمسم ولا أي تعويذة عرفها رجل منذ آدم.

أوقفـت السيارة بين الملعب الذي كنت ألعـب فيه ضمن فريق كرة اليد وبين كرم الزيتون الذي دربت فيه صديقي على قيادة السيارة ليسجل به أول حـادث له، ولم يكن الأخير، حين صدم زيتونة فاقتلعها من جذورها. لم نكـن بحاجة أنا وصبيتي لكلام ولا مقدمـات، فاكتفينا بإشارة وقوف السيـارة لكـي أختبر أول قبلـة بعد السجـن، ولتختبر رفيقتـي أول قبلة لسجـين، ظانّة أنه لم يلمسـ امرأة طوال سنينه السبـع السود. كيف لها أن تعـرف أن ظنهـا خاطئا، هـي لم تكن موجودة حين شـدني الوطر في أحـد ليالي السجن الباردة أغافل السجان وأذهب إلى باب مهجع البنات (هكذا كنا نسميهن بما فيهن الأمهات) وأنادي صبيتي التي لا تعرف من شكلـي إلا ما تسمح به الشقوق الصغـيرة لأبواب الحديد التي أتاحت لي أن أرى أنها هيفاء القوام.

كنـت أمضيـت قسما كبيرا من مـدة سجني في مهجـع متميز عن كل السجـون السورية، أسسه رئيس سابق لهذا الفرع الأمني. عُرف عن هذا الشخـص عشقـه لهذا المكان الـذي كان يمضي فيه كل يومـه تقريبا، لا يغـادره إلا بعـد منتصف الليل، وأحيانا يوصل ليلـه بنهاره وهو يعمل فيه مثل يـوم انتظر قدومـي مكلبشا مـن اللاذقية. وصلـت منتصف الليل، تركنـي لبعض الوقـت يعبث فيّ عناصره الصغـار، بعدها نزل مع طاقمه

الكامـل الجاهز ليساهـرني تعذيبا حتى ساعات الصبـاح الأولى إلى أن طلع الفجر عليه وغاب ضوئي إلى الأبد.

ومـن شدة ارتباطـه بهذا المكان أراد له تميـزا يتميز هو به عن غيره. زيّنه من الخارج بأشياء كلفتها عشرات ملايين الليرات، لدرجة أن ناظره لا يمكنـه تصور أن هذا المكان يحوي أفظع كميـة من الروائح الصفراء، بـل ربما يظنه أوسع فسحـة للحرية. طبعا لم يقصد هو التمويه أو إخفاء الرائحـة، إذ كانـت ضخامـة كميتها مادة مباهـاة وافتخار لـه، بل إنها مصـدر سلطته وسبب نجاحـه. أنشأ حديقة كبـيرة ومتنوعة، زرع فيها نباتـات وأشياء غريبة، وبنى شـلالات وبحيرات وقناطر وأقواس وقفصا للطيـور كبيرا جدا يتسع لأربع رجال على الأقل يمثلون مسرحية إيمائية، مـلأه بطيور ساذجة وأخرى جارحة. وأراد بعد هـذا، أو لهذا، أن يصنع قفصـا جميلا مدلـلا للسجناء وضع فيه عددا ممـن لا يمكن أن يفكروا في الهـرب لإدراكهم أن ثمن هروبهم سيكون السجـن والتنكيل بأسرهم وعوائلهـم. أعطاهـم الكثير من الامتيازات، التـي لم يكن يحلم فيها كل السجنـاء السوريين في ذاك الوقت، ليكونوا مصدر مباهاة له مثل طيوره وأزهـاره وشلالاتـه وسياراته. بعده صار هذا المهجـع لسجناء مدعومين لهـم أقـارب نافذيـن في السلطة أو في المجتمـع، وصار بعضـ السجناء، مثلـي، يرغبـون الإقامة فيه بسبب تلك الامتيازات مثـل إمكانية الخروج لساعـات طويلة إلى باحة السجن المشمسة، وتوفر الراديو والماء الساخن والكتب والصحف.

مكننـي وضـع هـذا المهجع مـن التواصـل السـري مع مهجـع البنات الملاصـق. وأتاحت لنا شقوق الأبواب تبادل بعضـ الهمس وتمرير بعض قصاصات الـورق، وكنت أحيانا أرمي لهن أزهـارا وكتبا وأشياء صغيرة نستعـين بها على السجن. كنت بحاجـة لبراعة لاعب كرة سلة كي أتمكن مـن رمي هذه الأشياء عـبر نافذة مرتفعة مشبوكـة بحديد خشن يسمح بمـرور مثل هذه الأشياء برمية واحدة أو أكـثر. وما كان يسيء أي منهن

أن تقـع باقة ياسمين على رأسها لا تكون لها بـل لزميلتها لتقدمها لابنها أو ابنتهـا في الزيـارة. كان يرضينـــي مـا أقوم بـه وأفرح عندمـا أكافئ بقصاصـة منهن: (... ذلـك الكتاب الذي هـوى في حرجي مباشرة في لحظـة كنت فيها عطشى لقصيدة ولوجه جديـد أستقرأ خلف تضاريس ملامحه وأحرفـه صديقا جديدا، إنسانا يقدّر ما الذي تعنيه لحظة فرح مباغتـة، ومـا الذي تعنيه يدٌ تمتد بحفنة تفـاؤل وبعض من أشعة الدفء في نهـارات الكآبة وغيوم قاحطة... هنا كان السر... وهنا كان الفرح. مـا الذي سأقوله أيضا، هل تعـرف اللاذقية... وهل أنت متعلق بها... حسنـا، إن اللاذقية وشوشتنــي في حلم أمس قائلة: «لسـت أنا من يزرر قميصـه في زمن التعب... وها أنـا أفتح حرجي البحري منتظرة أبنائي منذ الأزل كـي أهدهدهم بموجاتي الحنونة فأغسـل عن جبينهم غرابة الدهشة، وذبول قبل الأوان»).

هـذه الحالـة الفريدة في السجـون، بل ربما هي الوحيـدة، إذ تشترط إضافـة لوجود مهجعِ سجنـاء مدعومين أن يكون لـدى بعضهم كاريزما عالية تمكّنه من إقامةِ علاقات وثيقة مع السجانين ليُشغلهم عن سجين، مثلـي، مـا كان يحسب نتائج أفعاله في شبابه فلم يـترك نارا إلا وأشعلها ظانّـا أنني سأمتثـل لرأي باولو كويلـو وأطفئ تلك النـيران في أربعينات عمـري، وإذ بي أعـود باحثا عـن أي بصيص جمرة مخفيـة تحت رماد العمـر أزيحه عنهـا وأنفخ فيها مضرمـا نارا جديـدة أو قديمة خامدة. وسيكـون على أهلي أن يحتملوني، فهذا هو أنـا لا أعرف العيش إلا لاعبا بإشعال نيران قد يكون عليهم إخمادها إن أصابهم لهيبها.

نقرت لها علـى الباب نقرات تميزني عن السجانين كي تقوم إحداهن لتأخذ رسالتي الشفوية أو المكتوبة، وكالعادة كانت تسبق الأخريات بالرد على نقراتي، قلت لها أني سأفتح الشرّاقة (نافذة صغيرة في الباب لمخاطبة السجناء ومراقبتهم دون الحاجـة لفتح الباب) سألتني مستفسرة كأنها لم تسمـع ما قلـت أو لم تصدقه، وعندما تأكدتْ مـن جدية قولي شعرتُ

الفرح يتطاير من صوتها. قاومتني الشرّاقة لأنها مربوطة بشريط معدني سميك لمنع السجانين من فتحها حفاظا على الأمن الجنسي. ثخانة السلك أضعف من دوافعي. سارعتُ لملاقاتي مستعينة ببعض الكتب تقف عليها ليرتفع وجهها إلى مساواة الشرّاقة. الكتب دوما مفيدة خاصة للسجين إذ ينظر للأشياء أولا على أنها أدوات. لم نتبادل الكلام لأنه لا يستأهل هذه المخاطرة، فَهِمَ جسدانا على بعضهما، فدنت بوجهها من الشرّاقة لملاقاة أصابعي السجينة تلمس شفاهها المسجونة، وكأنها اللمسة الأولى. ارتعشت كلني، هي اللمسة الأولى: فلم ألمس سجينة قبلا، ولم أكن سجينا قبلا. راحت أصابعي الفاجرة، لحظتها، تتلمس باقي وجهها وتداعبه. لن تتسع الشرّاقة لوجهينا ويدي، سحبت يدي مدنيا وجهي من وجهها أقبّله، حالت سماكة الباب اللعين دون تواصل شفاهنا مع بعضها، تحايلنا على الجهات فوصلت شفاهنا اليابسة السجينة لبعضها بتضحية من أطراف الوجه تحزها حواف الشرّاقة الحادة. وكانت نشوة لم ينتقص منها يباس شفاهنا ولا برودة حديد الباب، فقبلة السجن هي كذلك لا أكثر ولا أقل: كتبٌ لتقف عليها صبية وشاب يخاطر بسلامته لنيلها، اتصالٌ برؤوس الشفاه، حديد يحز الوجوه، باب حديدي تنقل سماكته حرارة التصاق صدريهما وبطنيهما ولا يتكركر من مداعبة أيديهما باحثة عن ملامسة الأعناق والأكتاف. لم أخَفْ عليها من أنفاسي تستوطن حشوها فتحبل بي أشوب نقاءها... فأنفاسنا كلانا عقيمة.

مثل أي فعل تقبيل تبدأه اليدان ثم الشفاه ثم باقي سطوح الجسد، بدأ جسدانا يقتربان من بعضهما، يلتصقان عبر حديد الباب. فالحديد إضافة لناقليته الجيدة للحرارة فهو ناقل جيد للأحاسيس إن كان باب سجن يقف بين جسديّ صبية وشاب سجينين. استغرقتُ كلني في القبلة واحتضان الباب، كأي رجل سجين تقبض عليه شفاه صبية ولهة فلا يرى ولا يسمع ولا ينتبه، إذ هو أسير تلك الشفاه. لو لم نكن سجناء لاحتجنا لضم بعضنا لتثبيت الشفاه من أن تنفلت من بعضها، لاحتجت لمسك

كتفـين عبراني ذات مـرة أو لاحتاجـت سجينتي أن تقبضـ على شعري كمـا فعلت امرأتي ذات مرة كي لا أفلـت من بين شفاهها، أو لاحتجت أن أسندها إلى شيء ما وليكن برّادا مثلا. لو رآني أحد ألتصق بذاك الباب الحديـدي لظن أنها طريقة تعذيب جديدة يجربونها على جسدي بعد أن استنفـذوا طرقهـم وأدواتهم الأخـرى. لم يرني أحد، وربمـا رآني! كيف لي أن أنتبـه وأنـا أبحث عن قطرة ندى من لسانهـا أبلل بها يباس روحي وشفاهي. لكن زميلاتها رأوها وعرفن أني بالجانب الآخر من الباب رغم أنهـن لا ترينني، رأوها تداعب البـاب بيديها الصغيرتين وتمرّغ جسدها بصفيحـه، هل ضحكن مـن فعلتها أم حسدنها. هل أُثـرن أم قرفن. هل خجلـن من فعلتهـا أم هنأنها بمتعتها. هل لمحن رعشـة وانقباضات على ظهرهـا وردفيها دلت على نشوتها. أنا لا أعرف إن كان يظهر على ظهور النساء وأردافهن رعشة حين أقبلهن، لأني أكون من الناحية الأخرى، وهل يرتعشـ ظهري ومؤخرتي مثلهـن. ماذا فعلت سجينتي بعـد أن افترقنا، هل طمرت نفسهـا بالبطانية، مثلي، تغمض عينيها خوفا على نشوتها أن يسرقها سجنها. أدَخلـت الحمّام تتوارى من نظرات زميلاتها وأسئلتهن المحرجـة. لم أهتم أنـا إن كان رآني نزلاء المنفـردات الموجودة خلفي، أو شعـروا بهمهمتي أو شموا رائحة شبقي؛ مـالي ومالهم، لا يهمني شأنهم ولا مـن يكونـوا أو نوعية تُهَمهم، ما علاقتـي إن كانوا ذكـورا أم إناثا أم أطفالا، فلن أتعاطف معهم بهذه اللحظة وأفوّت على روحي وجسدي متعة يحسـدني عليها آلاف السجناء. أنا لا أجـرح مشاعرهم، قصدا، بتقبيل سجينتـي. فإن لم يكن معهم مـن يبادلهم قبلة فهو حظهم العاثر رماهم خلـف ظهري. ولا يحق لهم أن يأخذوا علـي دعوتي للمساواة الاجتماعية والإنسانيـة، التي كانت سبـب سجني، ويطالبـوني الآن بتطبيق شعارات نقلتها عـن غيري ولم أنتجها أو أفكر بها حينها وإلا لاعتَبرتُ أن المساواة الحقوقية الفردية هي الأهم والأساس. ومع ذلك من الغباء أن يفهموا أن دعوتـي تلك للمساواة تشتمـل ملكية القُبل، فأنا في عالم العشق رأسمالي

جشـع، لا أقبـل أن يقاسموني فقـراء القُبل قُبلي، لا طوعـا ولا قسرا. أنا بهـذا السجـن المالك الأكبر للقبـلات، بل إنني المالـك الوحيد، وما على الفقراء إلا مصّ أصابعهم، فلن ينالوا من شفاه سجينتي قبلة.

لم يخطـر في بـالي وأنا بين أحضـان بابها وشفتيهـا ذاك السجين في المنفـردة التي خلفـي تماما كيف رأيته، من سوء حظـي، صباح ذات يوم مدنـدلاً من سقف منفردته بحبـل رفيع غزله من خيطان بطانيّته ليشنق نفسـه، وكأنه لم يطلّ سقف بيته أو لم يجـد فيه، كما في هذه المنفردات، شبـكاً من قضبان حديدية يربـط خيط رقبته فيه، فاختـار هذا المكان، بمحض إرادتـه، عبر التحايـل على السلطات بـأن اخـترع لنفسه تهمة كاذبة لا يطالها القانون ولا تقبل بها المحاكم، وجاء إلى هنا فرِحاً ليربط أنشوطتـه التافهـة وينهي حياته في مـكان بوسع القـبر لا أكثر. وربما لم يكـن لديه لا سقـف ولا بيت أصلا، فالكثير من السوريـين، وأنا أحدهم، لا يملكون بيوتـا يسكنوها، لذا سيكون من الترف أن يملكوا بيوتا مجهزة بمشانق. وقد تكون هذه منّة وليست عوزاً ألا يتاح لنا بيوتا خشية أن نشنق أنفسنا فيها على مرأى الصحافة وأولادنا.

لا تعـرف سجينتي بأمر ذاك المشنوق. ربما لو عرفت لما قبلتَ بوصالي خوفا أن أكون شبحه. ويا ليتني كنت شبحا ككاسبر، بطل أفلام الكرتون، لتمكنـت من اخـتراق ذاك الباب ووصلـت إلى أجمل نهديـن رأيتهما في حياتـي كلها. نعم هما كذلك وسيعرف كل شـكاك ومرتاب صدق حكمي عندما نتوب في بلدي عن انتهاك حقوق بعضنا، ونكفر بالسجون والتعذيب والإهانـات، حينها سيُفتح ما بقي من السجـون مزارات تشهد توبتنا. ما عليكـم عندها إلا الذهاب لخلف ذاك الباب، ولـن تخافوا أن يغلقه أحد عليكـم، ستعرفونـه من «رائحة الحليـب المخبأ» تفوح منـه. انظروا عند منتصفـه سترون رسم ذينك النهديـن باقيا موشوما على ذاك الحديد، شاهدا على مغامرتنا البشرية.

سجينتـي لم تـر ذاك المشنوق، وربمـا لم تر مشنوقا حيـا في حياتها، ليسـت كلمة الحي هنا للمشنوق بل للرؤية الحيـة، فالمشنوق كالسجين لا يمكـن أن يكون حيا، وما الفارق بينهما إلا أن الأول معلق من رقبته بحبل مـا، والثاني معلق من روحه يحول سجانوه دون وصوله لحبل يشنق نفسه بـه، ليس رأفة فيه ولا رحمـة ولا خوفا من عذاب آخرة، بل لقهره. هي لم تـره لكـن أنا رأيته ولم أخبرها عنه ولم أخبر أحـدا. ليست رؤية المشنوق ممتعة، فلم أستمتـع برؤية هذا المشنوق ولا برؤية مشنوقين آخرين غيره رأيتهـم غير مـرة، قبل معرفة السجن، في ساحـات دمشق معلقين إثباتا لوجـود العدالة وقوتها عندنا. لكـن هذا غير صحيح، فالعدل ينتهي دوره عنـد إصدار الحكم، أما طريقـة تنفيذ الحكم فهي عقاب وتهديد للناس وللمـارة وليسـ للمحكومين. وما عرضـ جثث المشنوقين غـير تمثيل بها وإرهاب الناس الذين لا ذنب لهم سوى أن دروب أيامهم تمر من هنا.

مـا الذي جـاء بكن أيتهـا الصبايـا والنساء إلى هنـا لتعشن لحظات العـذاب هذه، وتنتظرن منـي أن أرفع صوت الراديو على أغنية فيروز «يا جبل البعيد خلفك حبايبنا» لتتذكرن أحبابكن وتبكين. كم أنتن ساذجات حـين صدقتمونـا أن الوطن لا يكتمل مـن دون سجينـات تَرَكن أطفالهن والبحـار وكـنّ تابعات لأزواجهـن الثوريين، أم صدقـتن أنكن مسجونات لأهميتكن أو لخطر تشكلنه على السلطة. لا سيداتي فأنتن ضحايا سادية رجال سلطة لا يرون اكتمال جبروتهم ما لم يعمموا قسوتهم على الرجال والنسـاء والأطفـال بتساوٍ تقتضيه المسـاواة الاجتماعيـة، وأنتن ضحايا ساديـة رجال ثورة لا تكتملِ هيئتهم الثورية من دون امرأة «ثورية» ملحقة بهم. فبعض الرجـال يأتي إلى السجن جرّاء سعيهم للتسلط والسيطرة، وبعضهم يأتي نتيجة هبل. أما أنتن يا نساء بلادي كم أنتن مظلومات.

عـدت والصبية والسيارة إلى البيت بعد أن نـال كل منا رغبته، هازئا مـن أصدقائـي الذين أبقوهـم في السجن: هـا أنا أيهـا الأصحاب أقود سيـارة أنىّ شئت، وأقبّل صبيـة جميلة قدر ما شئت. وأنتم كل ما تفعلونه

محاولــة التقــاط محطــة BBC أو مونتكارلو تستمعــون بحسرة إلى خبر خروجنــا من السجن، وربما تذيع هذه المحطــات أخبار قبلاتي لتغيظكم أكثر. لماذا لم تجيئوا معي! هل كان عليكم، مثلنا، انتظار مدير السجن أن يتلــو أسماءكم، وما علاقة هذا بأن تأتوا معي! هل انطلت عليكم الخدعة وصدّقتم أن تلك الأسماء التي ننادى بها في السجن هي ذات معنى. كلها ذات الدلالــة، يطلقونهــا علينا لإحصائنــا وتعدادنا فقط. هــي كالوشم أو الأرقــام أو الرمــوز. فلا يتميّز واحدنا عن الآخــر بها، طالما واحدنا لا يستطيع فعل ما لا يستطيعه آخر. فلماذا لم تأخذوا بالقول: ليقم صاحب الحاجة إلى حاجته، وأتيتم معي نستبيح الحياة علّنا نلاقي حرياتنا. فما لم تقوموا لحاجاتكم ستبقون كمن يقف قبالة امرأة تتلوى شفاهها اشتهاءَ قبلــة، فيتكاسل منتظرا مبادرتها، لن يحصــد إلا اللعب بخصيتيه. لماذا تنظــرون إلي مشككــين: لا تنه عن خلق وتأتي مثلــه. لا هذا غير صحيح، فما فعلته مع امرأتي كان خجلا وليس كسلا، وإن تظنون أني فزت عندما قامــت تعانقني قائلة: أنا سألفّــك، لتضم خصري وعيناها تقولان: هاك أحلى شفتين أمام فمــك، وخلفك الفرصة الأخيرة، ولن تصل يديك إلى خصيتيك هذه المرة. كان أخوكم حينها مجبرا لا بطل، نادم على كل تلك الأوقــات التي أضعتها أجلس بعيدا عــن تلك الشفتين لا تفارقان ناظري، وكأنهمــا للنظر وليستــا للقبل... الشفاه دوما للقبــل، أتحجج لها أني لا أستطيع تركيز نظري على عينيها لجمالهما، فأترك نظرتي تنزلق لاهية كطفل فرح على انحدار أنفها الوحشي لتسقط من ذروته في هاوية بهائها، فتلتقطها شفاهها وتقذفها: كم أنت أناني لا تحسب إلا لرضاك. نويت أن أقــول لها: ليست أنانيتي إنه خجلي الــذي أبقاني دون تلك الشفتين حتى تلــك القبلة التي ندمت بعدها على فــوات تلك اللحظات رغم معرفتي أن قطار العشق كقطار الحياة: ما لم تركبه فاتك. فخذوا بنصيحة من ذاق طعــم الحياة من شفتين تقطران رطبا بللتــا شفتيه المتشققتين من يباس مديد، ولا تنتظروا أن ينــادى عليكم وتعيشون عذاب الانتظار بين أجزاء

الثانية كما فعل منصــور. اتركوا كل كراكيب السجن له، لا تُحضروا منه شيئـا، فـكل أشيائه لا نفـع منها في الحيـاة. وإن كانت الأبـواب موصدة فتشـوا عـن مخارجه الخفية، فلـكل سجن مخارجه الخفيـة. وعند آخر عتبـة أرموا ذاكـرة السجن وذكرياته، ولا تنبهروا بنـور الخارج فتنسوا، أو تتناسـوا، رمي ذكرياتكم، وإلا لا نفع منكم ومـن خروجكم، فستبقون أسرى هذه الذكريات القاتلة وستبحثون، مثلي، عن رجل، أي رجل، فقط أن يكون طليقا لم يعرف السجن يوما، يرضى أن نتبادل ذاكرتينا ليومين فقـط لا أكثر. يجب أن يكون رجـلا فلا تصلح امرأة لهذه التضحية، وإلا لسهل الأمر، فامرأتي حنونـة وتحبني وستقبل راضية هذه المبادلة لأكثر مـن يومين أيضا. لا أريد امرأة فنساء بلادي، وإن كن طليقات، لا يعرفن للحريـة طعما ولا فهما. أريد رجـلا يضحي بهذين اليومين هبة إنسانية، صـوم كفارة، نـذراً مستحقـاً، فعل خير مرمـي للبحر، أستعـير ذاكرته ليومين فقـط أرتاح فيها من خوف معلّق في القحف في أسفل مخي وأكبر منه، أريد أن أرتاح يومين من المسكنات والمهدئات والكوابيس. لن تكفيني يومان لكن سأقبل بهما، لن أطمع بأكثر، كل يوم منهما مقابل عشر سنين مضت على اغتصابهم حريتي.

سأقبل بأي رجل، لن أشترط صفات له ولا ملكات، سأقبل به وبذاكرته حتـى لـو كان يشـرب القهوة محـلاة، أو يكـره التدخين ولا يحـب قيادة السيـارات، وحتـى لو كان لا يحـب النساء، بل سأقبل بـه وبذاكرته حتى لـو كان «مثقف سلطة». هو شـرط واحد فقط يجب أن يتوفر به وهو ليس شرطـي بـل لا تكتمل روح المبادلة مـن دونه: ألا يكون سجينـا أو سجانا، فكلاهمـا ستفوح منهما ومـن ذاكرتهما رائحة السجـن، فهذه الرائحة، التـي ما زالـت تخنقني للآن، تفسـد أمنيتي هذه. إن وافـق رجل وأنجز المبادلـة، تجـب حمايته بعدها مـن الانتحار، فلا يمكـن لإنسان احتمال زرع هـذه الذاكرة فيه دفعة واحـدة ولا ينتحر. حتى أنا، لا شك، سأنتحر

عندمــا تُعاد لي هذه الذاكــرة الفتاكة بعد نسيانهــا ليومين. لكنني راض بهذا، فيومان في الحرية تستحقان التضحية بحياة لا روح فيها.

دخلنــا البيت مفلتا معصمها. جلت بنظري على كل الكؤوس والأجساد الساكنــة والمتحركة، وعلى كل العيون باحثا عن فرحتي التي لم تكتمل. لا أدري لماذا الفرحة تأتي ناقصة والخيبة تأتي كاملة. ربما لو أفرجوا عني قبــل الآن لاكتملت فرحتي، لكــن متى كان يمكن أن يكون هذا القبل الآن، لا أدري. مــا أعرفه أنني في سنوات سجني الأولى كنت أشعر أنه لو أُفرج عني يمكننــي أن أُعيد تشكيل العالم كما أشــاء، وأستمتع بحياتي وأنسى السجــن وسجانيه. لكن في السنة أو السنتين الأخيرتين شعرت أني بدأت أستحبس. استحبس: مفردة نتاج طول سنوات السجن، يطلقها السجناء علــى من يتماهى مع السجن ويبــدأ يختل صوابه. بدأت أستحبس أي أني بــدأت لا أُبالي بفوارق الأشيــاء والأمور، أعرف تلك الفوارق لكن لا أبالي أيهــا ينوجــد وأيهــا لا ينوجد، فكل شيء وشــيء سِيّــان بالنسبة لي، وكل شيئــان وشيء أو شيئين سيّان أيضــا، كل الثنائيات سيّان، وكل النقائض سيّان والتعاكــس سيّان. هكذا، يكون السجن أخــذ مني محبسه فصرت حبيسه... صرتــه... صرت عدما. العدم هو تســاوي الأشياء. فالعدم عــدم ليس لأنه خواء بل هو امتلاء، لكن مــن دون فوارق. انعدام الفروق هو العدم. فليس العدم نقيض الوجود أو أنه اللاوجود، إنه وجود من دون تنــوع. وأينما انفقدت الفوارق كان عدما، فالعدم لا مكان له ولا زمان ولا مــآل. والسجين عدم حين يفقد مقدرة تمييز نفسه عن السجن. قد يحلو للبعضــ رؤية حالة الاستحباس هذه عبارة عن انهيار، انهيار المقاومة. لا هــذا التوصيف هزيل لا يفي بالغرض: أن أنحبس يعني أن يتساوى عندي السجن والحياة، ومن يتساوى عنده السجن والحياة لا نفع منه.

قبل الاستحباس كنت لهوفا للإفراج، لكن حاجتي للإفراج بعده سببها ضجري من المكان الذي أنا فيه، ضقت ذرعا به لا غير. فما يميز الإنسان

عن اللاإنسان أن الأول لا يتساوى عنده السجن والحياة، والثاني كلاهما سيّان عنده.

كل سجين يعيش أحلامـه، لكن ليس ما يحلمه السجين في يقظته حلم يقظـة، بل هو يقظتـه نفسها. حلـم السجين ليس ترفـا في الزمن كحلم يقظـة الطليـق، بل هـو فعله الأوحـد في زمـن السجـن، أو في مقاومته. فيقظتـه كلها هي حلمه بإعادة خلق عالمه خارج السجن، لا داخله، حسب أهوائـه: يرسم لـه خطوطه العريضـة والرفيعة، ويزركشـه بألوان كلية، ويفصّـل كل تفاصيله، ويشـكل الزمن والآخرين، يسيّرهـم حسب هواه: يجمّلهم ويقبّحهم استجابـة لرغباته. يدّعي في حلمه هذا: عندما أخرج من السجن سأفعـل...، ولن أفعل...، ويمضي يعيد حلمه ويكرره آلاف المرات، حسب عدد أيام سجنه أو أكثر. وبعد طول سنين ودوام حلم واحد مكـرور يخرج مـن السجن وإذ به غير قادر على فعل ما نوى وحلم بفعله، وفَعل ما نهى نفسه وحلم بعدم فعله، فيخسر الحلم وإمكانية الحلم. فإذ تروكـب مخيلتـه، لطول السنين، علـى ذاك الحلم الخائـب يفقد مقدرة الحلـم، لأنه لم يعـد يعرف حلما غـيره، ولا يستطيع حلمَه بعـد أن أُطلق لواقـع لا يتسـع لأحلام جديدة. فهل يعود إلى سجنـه يجتر حلمه المأمول من جديد ويتلمظ نكهة مرجوّة.

في سجني، صـار ذاك الحلم ملاذي الليلي، حضن امرأتي... مهدي المهدهَـد... حبوب الفوستان...، إدمـان لا أنام من دونه. أخفي وجهي عـن الآخريـن وأعيشـ حلمـي. لا أريدهم أن يـروا تعابير وجهـي تتمثل الحلـم: إن رأى أحـد ابتسامتـي قد يظنهـا بلهاء، أو يـرى انقباضا على وجهـي فيظننـي مسكون بشيطـان أو عفريـت. بقيتّ حـالي هكذا حتى استحبسـت، فلم أعد أحتاج حلمي للنـوم، إما لأن أحداث يومي تشابهت وفقـرت، فلم تعد تستطيع إغناء حلمي فبـات يتكرر ويتكرر حتى سئمته. أو أن خيالي نضب وتبلد وتساوى مع الحبس. ويمكن أن الاستحباس جعل تفاصيل حلمي تافهة، وسوّى بين كل السيناريوهات ففقدتّ جمالية التنوع

والتعدد. وقد يكون العكس، فأول السجن تجلب الأحلام موادّها من بقايا ذاكرة الحياة، ومع طول أمد السجن وحلول الاستحباس تغور ذكريات الحياة لتطفو فوقها ذكريات السجن ذات اللون الواحد والطعم الواحد والأثر الواحد، ولا يبقى للسجين من عناصر الحياة لحلمه شيئا، أو تكون عناصر الحلم الخارجية تغيرت وتبدلت أو التغت، فالصبي الذي حلم أبوه السجين في تنشئته كبر وما عاد يحتاج أباه العائد بعجز يجعله أحوج هو لرعاية ذاك الصبي الذي صار شابا آن له الزواج... والسجن. وفتاة أحلامه تكون أنجبت بزواجها من غيره الذي قد يكون صديقه أو رفيقه. وزملاء دراسته صاروا أساتذته بعد أن نالوا شهادات فاسدة. وأمه الذي أراد تقبيل يدها طالبا صفحها عن إثم فراقها، تكون ماتت. وأبوه، الذي حلم أن يعود له ابنه بفوز يتباهى به، خرّف الآن وزادت رغبة أشقائه في عودته من السجن ليرموا والدهم في وجهه: خذه جاء دورك للعناية به فنحن أنهينا واجبنا ولدينا همومنا وأولادنا.

يضيق الحلم ويصغر شهرا بعد شهر، وتقل عناصره الحاضرة من دائرة وجوده الاجتماعي، ويزداد افتقار الحلم لعناصره حتى النهاية ليبقى صاحبه فيه لوحده، فيصير هو نفسه مادة حلمه الوحيدة، فيتساوى عنده، لحظتها، السجن والحياة، وربما يفضل السجن لأن حلمه قد صغر في الزمن حتى صار لا يشمل سوى يوم واحد، فيعجز أن يقفز بحلمه خارج السجن لأن ذاك اليوم الواحد سينقسم بالضرورة بين سجن وغير سجن، فينحبس وينتهي الحالم بضيق حلمه.

ما أذكره من حلمي رغبتين لم أنسهما، ربما لكثرة تكرارهما في مخيلتي، أو لأن عناصرهما لا تزول: الأول، أن أذهب من السجن لبيتنا يوم إخلاء سبيلي سيرا في شوارع دمشق نتذكر معا: أني لم أترك فيها مداسا إلا ولعبت فيه. لكن عندما أخذني ذاك الرجل بسيارته لم أطلب منه أن يتركني وحدي، ربما تكاسلت، أو خفت أن يعيدني إلى حيث كنت ويكسر فرحتي. فرحتي التي ما زلت افتقدها لحد هذا اليوم، لكنها لا بد

آتيــة في لحظة تالية أو يوم قادم أو بعد حين. فلا يمكنها إلا أن تأتي، وإلا كيف حلمت بها سنين طوال، وآلاف غيري حلموا بها، مثلي، لسنين أطول مــن سنيني. رغبتي الثانية، أني في نفس اليوم، وبعد لقاء أهل انتظروني باكين مكسورين طوال سنين، سأصعد إلى قاسيون وأصرخ ملء صوتي.

تذكــرت قاسيــون وأنا بين ضيــوف أُسايرهم بشرب كأســ لا يُقدِّم ولا يُؤخِّــر بثمالتــي، أو بمراقصــة إحــدى الصبايــا أو النســاء. انسللت إلى السيــارة مرة أخــرى، كان هذا قبل أن أصدمها في تلــك الليلة، وصعدت بهــا إلى قاسيون. تهت قليــلا من كثرة طرقاته المستحدثة، بحثت عن تلة عرفتهــا عندما كنت شابا صغيرا طالــب في الثانوية حين صعدتها برفقة فتاتــي بسيارة مهرّبــة (أواخر السبعينــات جيء بالكثير مــن السيارات مــن لبنــان «الشقيق»)، واخترنا تلــة فسيحة بني عليهــا شيئا مثل خزان مــاء أو ما شابهه. كان صباحا شتويا يلــف ضبابه المكان فلا تُرى المدينة ولا المدينــة ترى الجبل. قــدّرت أني هنا في مأمن مــن أجهزة الأمن التي عممــت في تلك الأثناء منع الطلاب من الذهاب إلى السينما أو الكفتيريا أو السنــاك باللباس المدرسي أو أثناء الدوام المدرسي، وأذكر أني سمعت بكلمــة السنــاك يومها لأول مرة. لهــذا حاولــت أن أداري عن مراهقتي، فالمراهقــة كانــت، وما زالــت، ممنوعة عندنــا ومعيبة، إذ علــى المراهق أن يكــون واعــدا وأن يهتم بالقضية الفلسطينية ويحفــظ أسماء عواصم العالم ويبتعد عــن اللعب واللهو، فهذه للأطفال الذين عليهم بدورهم أن يلعبوا حصــرا بالشطرنج ويلهوا بالتباري بتسميع جــدول الضرب. لهذا صعــدت إلى قاسيون الذي كان حينها منطقة نائية مهجورة لا يرتاده من الدمشقيــين إلا سكان الأحيــاء القريبة منه، على غير حالهم الآن بعد أن حولوه إلى مصطبة أمام الدار يرتادوها جميعهم بشكل شبه يومي. لهذا زوّغنــا مــن الشرطــة وإدارة المدرسة إلى الجبل نتستّر مــن عيون الناس والشرطة. ما أحلى تستّر مراهقَين بالضباب حين يكون كل منهما ما زال يخجــل من رؤية عريــه فيلتصق بالآخر يداري خجلــه وجسده، يمارسان

اللّمس الوجل المستكشِف، فأكتفي بإحساسي بنفرة حلمتيها من برد الجبل أشعر بهما من فوق ملابسها العسكرية. كانت تلك أول وآخر مرة أتستر فيها بالضباب. مارسنا عشقا طفوليا بريئا من مشاهدة أفلام الفيديو الذي لم نكن نعرفه بعد، ومن المحطات الفضائية الإباحية التي لم تكن اُخترعت بعد ومن ثقافة جنسية لن يعرفوها حتى أطفالي من المدرسة، فكان علينا اكتشاف أجسادنا، والجسد المختلف، بأنفسنا... بيدينا. كان على أطراف جدران ذاك البناء الذي يشبه خزان الماء الكثير من المحارم الورقية المرمية (كنا نسميها كلينكس)، لم نعرف سبب رميها هنا مع أنها مفقودة من الأسواق، وأغلبها كان يأتينا مهرّبا أيضا من لبنان «الشقيق»، إذ أن حكومة ذاك الزمان الغابر/الحاضر استكثرت على السوريين، على لسان أحد وزرائها على شاشة التلفزيون، أن يترفوا باستخدام المحارم الورقية طالما فلسطين محتلّة.

لم أتعرّف إلى تلك التلّة، إذ اختلف علي قاسيون بطرقاته وأبنيته ومطاعمه وروّاده. إلا أنني حظيت بتلّة صغيرة معزولة ليس عليها أحد، تفي بالغرض. ترجّلت من السيارة ووقفت في مكان أستطيع منه أن أرى الشام كلها تقريبا. ما أجمل دمشق من هنا كأنها بطن امرأتي الممدود المسطّح وأنا عين تتكئ على حلمتها الخوخية أنظر لامتداد بطنها الناعم دون رغبة النزول منه إلى الفخذين. تمليتها بهدوء وحسرة، غابت عن روحي الفرحة المتوقعة من هذا المكان وبهذه المناسبة. لم يستطع بريق أنوار المدينة ولا حركة السيارات المرئية في تلك الليلة، أن تلفت انتباهي وتشغلني عن البحث بنظري عن البناء الذي قضيت فيه أغلب أيام سجني. أعرف أنه بناء في وسط الشام، أعرف الطريق إليه، لكني لا أستطيع استبيانه من هنا. هل الشام تحجبه عني، تُنكره؟ تدّعي جهلها به وبأشباهه. أظنّتني خرفت لأنسى، أم تظن أني متسامح لن أعاتبها على إغفالي طوال سنين قضيتها تحت أرضها وهي صامتة سكوت البكر الراضية. أتراها استمرأت الخوف مثلنا وتناستني... ونسيَتْ.

اخترت مبنى اعتبرته هــو الذي أبقوني في سفله (لا في قبوه) سنواتي تلك، قد لا يكون هو لكنه صرح من صروح الوطن المتكاثرة، وبالنسبة لي كل الصــروح يمكــن أن تكــون سجونا، وقد كانت كذلــك في فترة ما حين استدمى نشاط الأخوان المسلمين. حدقت في ذاك المبنى بإصرار مفتعل، فلم أكن وقتها قادرا، ولا الآن، على الإصرار لأن ثمنه في بلدي غاليا، لكنني امتلأت قوة أجهل إن كان مصدرها هواء الجبل أم إحساسي بالأمان تلك اللحظــة، فأظنني لم أكن خرجت بعــد من طقوس الأحلام حين توهمت، لحظتها، إن جاءني رجال الأمن أرمي نفسي عن هذا الجرف فتحتضنني دمشقــي جثة تقيم لها مقاما قــرب الأربعين. ملأت صدري بالهواء الحُر وصرخــت بصوت هدّار صرخــة حُرمت منها سبع سنـــين، فعلت خلالها الكثــير إلا الصراخ الحر. نذرت صرختي هــذه من أول يوم انتزعوا مني حريتي، من أول صرخة ألم أخرجوها من جسدي، نذرت أن آتي قاسيون وأصــرخ من علاه صرخةَ حرٍ أمــلا أن تسمعني الشام. لكني لم ألمح حتى تنهيــدة منها، ولا صــدى صوتي رجع، وربما لم تخــرج صرختي مني ولم يسمعها أحد غيري. كأن دمشق غبّته خوفا علي بسرها أن يسمعني بوابو الأسفــال فيخطفوني ثانيــة، وربما عرفَتْ أن صوتي ليــس صوتا من دون حريتي.

اشتقــت لأصدقاء السجــن، تمنيتهم أن يكونوا معــي في ليلتي تلك، لا ليشاركــوني انتظــار فرحتي المؤجلة ليــوم استعادة حريتي كمــا تشاركنا سنينــا انتظار لحظــة الإفراج، بــل أردت فقط أن أكــون معهم. أظن كل واحد منهم كان لديــه نفس الشعور، هذا يفسر بدء عودتنا لنلقى بعضنا بعــد يوم أو يومين، لا لنحكي عمّا وجدنــاه خارج السجن، فجميعنا تواطأ في البداية عن تناول هذا الموضوع، لخشية كل منّا أنه الوحيد الذي شعر، بعد لقائه أهله وأشيائه وصبية جامعها أو قبّلها، وإنجاز مراسيم الخروج من السجن أنه أنهى واجبه، وعليه العودة إلى أصدقائه. كأنه شعور خفي برغبــة العــودة للسجن مــن خيبة الليلــة الأولى، أو لسبــب آخر، تمظهر

بالشوق للقاء أصدقائه الذين لم يكن بالعادة يلقاهم كل يوم رغم أن يطأ بعضهم لا يبعد عن يطأه أكثر من مترين أو ثلاثة. (يطأ السجين: هو فراشه، هو بيته ومزرعته ومدرسته، هو ملعبه وملهاه، إليه يدعو أي امرأة تستحضرها ذاكرته، يُدخلها برغبتها الجامحة تحت غطائه، يسمح لها راضيا أن تدس أصابعها تمسّد بطنه وتحشر سبابتها في سرته، وتنزل بيدها تلامس ذراه. يطأ السجين عالمه، هنا مبكاه، هنا مصلاه، هنا...، هنا وطنه: يمكنه أن يقيم عليه أسوارا من الشراشف، أن يحدد العلاقات الدبلوماسية مع جيرانه، أن يرفع فوقه أي علم أو راية يشاء. يمكنه تقرير أن يكون اقتصاده اشتراكيا، وبعدها إن أراد يشير إلى رئيس هيئة التخطيط عنده أن يعلن انتقال وطنه إلى اقتصاد السوق. يمكنه أن يعلّق صور من يشاء على الحيط خلفه، وإن كان محظوظا وكان يطأه/ وطنه في الزاوية فله حَيطان يملأهما صورا، أو يصدر مرسوما بإزالة كل صور عائلته. وللهوه يخلق شعبا ويزجهم بتتال في سجون يصممها على هواه وحسب ذائقته المعمارية. هو رب اليطأ: يفرد عليه البطانية إن أراد أو يلمّها). أما الآن فلا يقوى بعضنا على مفارقة الآخرين، ربما لإحساسه بالأمان معهم أكثر من أهله المنسيين لطول سنين فراقهم، أو، كما كنا نفسر هذا حينها أننا نمتلك لغتنا الخاصة ومزاجيتنا الخاصة وانفعالاتنا الخاصة. لكن إن فسر ذلك رغبة تلاقينا في ذاك الوقت لا يمكن أن يفسره الآن. ومن هذا فقد قرر بعضنا أن ننظم لقاءاتنا (قد تفهم كلمة ننظم بمعنى جنائي مخالف للدستور السوري، لكن استخدمتها لضرورة الإفهام)، كان تنظيم اللقاءات هذا بقصد التباعد عن بعضنا وليس بقصد خلق التزام للوصال، إذ أقرينا (أتحدث عن بعض قليل منا) حينها أننا بحاجة للاحتكاك بالطلقاء لنتدبر شؤون حياتنا ومعيشتنا. لكن قسما كبيرا منا فشل باستبدال أصدقاء السجن البغيض بأصدقاء الحياة الهنيئة.

بعضنا مرر بعد حين اعترافا، بين الهزل والجد، بتفضيله السجن

علــى حياته الجديدة. كان يستغل ضائقة مــا تمر به، مهما تفهت، ليقول أن السجــن أفضــل. وبعــد حــين ضغــط الأمر المقلــق علينــا جميعا (ما زلــت أتحدث عن بعضــ قليل من السجنــاء السابقين خاصــة المهزومين كمــا يسمونهم مــن ظنوا أنفسهــم صامدين)، وصــار موضوعا للحديث والنقاشــ والجدل بيننا جميعا (أقصد الجميع). فتبين أن بعضنا (قلة) امتلــك رغبة حقيقية بالعودة للسجن، والبعضــ أكد، من دون مواربة ولا ذريعــة، أن السجن أفضل. ربما كنا جميعنا كذلك، لكن كلٍّ منا كان يراه عنــد آخر ويخاف من هذا الإحساس على نفســه. كان شعورا مخيفا: إن مجرد المفاضلة بين الحرية والسجن يدل على مدى فداحة الجريمة التي ارتكبهــا سجانو بلادي بحق عدد من شبابهــا... فطوبى لهم وليفرحوا بما صنعت أيديهم.

بعضٌ آخر منا رفض الإقرار بذلك رغــم إحساسه بامتلاك مثل هذا الشعور، عزاه للتعود وليس للخيبة. هرب من الإقرار بخيبته: إخفاقه بأن يقــوم بفعل يؤكد بــه ذاته ويرضي حلمه...، أن يحــوز على حيز يخصه حتى لو كان صغيرا واطئا بوطاءة يطأه السجني...، أن يشعر أن الحياة تحتاجــه ليحتاجهــا ويتمسك بهــا. وإذ بالخائب يجــد أن خياراته خارج السجــن هي من طبيعتها داخله، قليلة وضحلــة. فبعد أن أتاح له السجن في آخــر فتراته مزيدا من الخيارات: ينام متى شاء وقدر ما يريد، ويبول كيفما أراد، واقفا إن رغب أو مقرفصا كما يريد أبو يسار من أبي عوسج، ويمكنه أن يأكل برغلا ومرقا أحمر طوال ساعات صحوه... يا لخيبته.

حين يُخرج السجين من الحياة ليولج سفل السجون تبدأ الحياة والأهل والمجتمــع رويــدا رويدا بإلغاء مكانــه وملئه ببدائل عنــه. وحين يُنزع من السجــن ليُــزرع في الحياة من جديد يذهب بتلقائيــة الأبله إلى حيث كان مكانــه متوهما أنه مازال علــى وضع يده لم يقربه أحد ولا يمكن لغيره أن يأخــذه. ولا ينتبه في الأيام الأولى إلى زوال مكانه السابق، إلى أن ينفض مــن حوله المهنئين والمتفرجــين ويذهب أهله كل إلى حــال عيشه يبدأ هو

بالحوصان غير مدرك أن لا مكان له بينهم، فقد اكتفوا منه طوال غيبته بصورتـه المعلقـة في صدر البيـت، وأنه سيحتاج سنـوات وربما دهرا من العمل والجهد ولمساعدة الآخرين ليستصلح له مكانا على قدّه بين الأمكنة البـور المهملة أو التي تركها غيره حين انتقل بـدوره القدري إلى السجن. لكـنّ هيهـات أن يدرك السجين حقيقة هذا الأمر بعـد أن جعلك السجن وعيه الموضوعي والمنطقي، وجعله يُلبس الأشياء والأشخاص صورا وقيما مـن خياله السجني تفـارق الواقع، ويطول به السجـن إلى أن ترسخ تلك الصور في ذهنه لتحل محل الحقيقية. فإن يخرج من سجنه تخذله واقعية الواقع، وتخذلـه ملكاته فيعتقد أن الواقع تغير وتحول إلى حال أسوأ مما تركه عليه. فيحمل على الواقع وموجوداته ومكوناته، ويطلق عليهم لعناته لاعتقاده أنهـم خيبوا أمله ولم يكونوا أوفياء له. فيرى هؤلاء الخائبين أن أمهاتهم اللواتي كن يدسن الجنـة لطهارتهن ونقاوتهن وحنانهن تحولن لنساء... لإناث: يسببن الإزعاج أحيانا، ويمقتن فلذات أكبادهن أحيانا، غبيات غالبا ومضجرات. ذلك نتاج الخيبة... وربما سببها.

وأبنـاء الخائبـين كانـوا بالنسبـة لآبائهم، حـين كان هـؤلاء سجناء، ملائكة... هبات من السماء، بولهم عطر، صراخهم موسيقى، بكاؤهم طرب. وبعد السجن خيبوا آبائهم....، هكذا تصور الخائبون، فأجبروهم علـى ضربهم وعلى الخروج للمقاهي طفشـاً منهم ومن أمهاتهم اللواتي كـن، ككلٍ أحـلام السجنـاء وذكرياتهم، أمثلـة للوفاء والطهـر والنقاء. وبعدمـا أُطلقوا وجدوا تلك النساء منفّـرات، ووجدوهن أحيانا عاهرات يدفعن أزواجهن الخائبين لطلاق ردعي أو لزنا كيدي.

كان هـؤلاء الأهل أحبة ونعمة الأمل الوحيـدة لأولئك الخائبين عندما كان يُسمح لهم أن يأتوا بضع مرات فقط في السنة أو في السنوات، ليزوروا خائبيهـم. كانوا يُصفّون رتلاً أو نسقـاً على شبك حديدي خشن، أو على شبكـين حديديين خشنين أو ناعمين، أو واحد خشن والثاني ناعم كما هو الحـال في سجن صيدنايـا الحديث الذي كان مفخـرة السجون السورية

أواخـر ثمانينـات القرن الماضـي. كان جديدا وكنا فاتحيـه. شق مديره شبك الزيارة الناعم شقاً على طول الشبك، يتسع لتمرير لمسة بين الأهل والسجنـاء. نعمة، بتقييمي، أن يقدّر مدير سجن في سوريا أهمية اللمسة والقبلة بين البشر، بل وأن يعتبر أن السجناء بشر، فيخرّب مظهر الجِدة في سجـن كان حريصـا أن يبقـي على سجنه كل سمـات حداثة السجون المعاصـرة، من نظافة ورتابـة تتناسب وأناقته الشخصيـة التي حسدتُه، بسببها، على زوجة تخرجه أو تدفعه للخروج بهذا المظهر.

نعمـة، أن يحظى السجـين بلمسة عبر شق الشبك مـن طليق، أنثى أو ذكـر، تمـده بحنان ولطـف ورأفة لا يلقاهـم عند السجنـاء الذين حجّر السجـن أرواحهم، فصاروا قساة خشنين، كل واحد يشعر بأنه أحوج من غيره لكل ما يلتقطه من حنان ورأفة من الزيارة يقيت بهما روحه في أيام القسـوة القادمـة الطويلة، التي لا يعرف نهاية لهـا، لا هو ولا سجانوه ولا إنسـان. إذ هي مرهونة بمزاجية مطلقة لواحد مطلق، لا خلاص للسجين بغيرهـا، فكل القوانين والنواميس تخـرّ أمام معادلة إطلاق سراحه. فلا متغير سياسي داخلي أو خارجي، ولا متغير تاريخي أو حياتي، ولا انسحاب السجـين من حزبه أو انسحاب حزبه من العمـل السياسي، ولا توبته عن جـرم مطالبتـه بحرياته وحقوقه الطبيعيـة، ولا إضرابه عن الطعام، ولا إسفافـه باسترحـام، كل هـذا لا يقدم يومـا ولا يؤخـر في موعد إطلاق سراحـه. فهذا اليوم الموعود مكتوب على الجبـين لا تراه عيون البشر ولا عيـون قارئات الفنجان... ولا توجد قارئات جبـاه. فإن مكِّن المبصّرون أن يـروا المستقبـل بخفاياه وخبايـاه، تعمى عيونهم عـن رؤية ذاك اليوم القـدري، كونه يوم خارج أيـام الزمن الكوني، هو يوم مـن أيام مزاجية قـادر مقتدر. فهو ليـس يوما من أيام السجين يحتسـب من حياته أو من تاريخه، يسجَّل له أو عليه. هو يوم من تاريخ القدرة، وليس السجين أكثر من موضـوع لهذا التاريخ، أو مادة لفعل أو لفيض هذه القدرة حين تنتبج بشعـور التشفي فيخرج السجين مـن السجن مخاضا لها، ويبقى السجن

في لب السجين ليصير هويته الجديدة، يُعرف ويُعرَّف بها: سجين سابق. هـذه السابق هي تحديد لدرجـة الهوية، إذ يمكن القول، ويجوز ذلك، أن كل سـوري هو سجين حالي أو سابق أو لاحق، لا يحيد عن هذا التصنيف إلا من يموت قبل نهاية عمره، وغير ذلك فهو مشكوك بأبوته. فالسوريون يعرّفون بالسجن: إما سجناء أو طلقاء فليس بينهم أحرارا. إذ أن الطليق مُحـدَّد مسبقـا بالسجـن، فالسجن قبلهـم سابقا لهم ومشـكّلا هويتهم جميعهم من قادتهم لعبيدهم.

بعضـ الأهل الزائرين يبكون حبيبهـم الخائب الواقف خلف الشِباك، أو فقدانهـم الحيلـة عن فـك حبسه. وبعضهـم يبتسم بادعـاء مفضوح أو بمحاولـة مخفقـة أن يرفـع معنويـات خائبـه. والصغـار، منهـم من يبكـي غرابة المشهـد والموقع، ومنهم من ينظر دهشـة واستغرابا محاولا استيعـاب المشهـد، معتمدا على خبراته، فلا يجد لهـذا المسرح شبها في ذاكرتـه لا مسرح العرائس، إن عرفه، ولا حتى خيال الظل. فلا الجمهور مستمتـع ولا الممثل يمثل. ولا تعينه كلمات ذويه ولا عباراتهم ولا عبراتهم أن يصـدّق خبريتهم أنهم سيرونه أبيه. فهذا الكائن خلف الشباك غيره تلك البلاهة البلاغيـة التي يلقنوه إياها في المدرسة. ويختلط عليه الأمر أكـثر حين لا يميز المدعو أباه عن سواه ممن يقفون في الجهة المقابلة من هـذا المسرح حيث الممثلين، فالزيارات جماعية لازدحام السجن بنزلائه. فقد يروق له شكل كائن آخر، غير الذي أشاروا إليه على أنه أباه، فيبتسم لهـذا ويتجاهـل ذاك، لاهيا كل زيـارة، في اختيار أب علـى هواه من بين هؤلاء الآباء المتشابهين بانكساراتهم.

مسمـوح أن يفوق عـدد السجنـاء الحقيقيين عددهـم في السجلات، وجريمـة عظمـى إن نقصوا. فإن سجنـت امرأة لأن زوجهـا أو أخاها أو أباهـا هـرب قبـل أن تطاله يـد الحاكم العـرفي، وصـادف إن حملت في رحمهـا بيضة ملقحة، وطال سجنها بطـول سنين غربة ذاك الرجل سبّة سجنهـا، أو ربمـا أطول من ذلك إن شـاء قدره أن يأتي يـوم أجله خارج

بلـده ولم يتمكـن مـن العودة ليفـك حبس حرمتـه، ستضطـر حينها أن ترعـى جنينها وتلده أنثـى ترضعها وتطعمها، وتـترك للسجن أن يربيها لتبلغ المولودة عشـر سنين غير سجينة وغير طليقة، فلا السجن يحسبها من عداد سجلاته، ولا دائـرة النفوس تقر بوجودها، فهي مجرد مولودة أو مخلوقـة لا تنطبـق عليها قوانين الدولة، لهـذا تفاجأ ضابط كبير كان مسؤولا عـن تفقد أحوال سجيناته، رهينات القـوى الدينية، ليحضّرهن لإفـراج «رحيم». اختلف معه العـدد فأنب مرؤوسيه علـى خطأ لا يعرف هـو كيف كان لهم أن يحلّـوه: فلا يمكنهم أن يعتبروها سجينة ويدرجوها في سجـلات سجنهم، لأنـه لا يحق لهم هذا، ولأنهـا مولودة صغيرة على السجـن وعلـى الزواج. فبمـاذا كانوا سيجيبـون هيئات حقـوق الإنسان الدوليـة عـن سبب سجـن هذه الطفلـة (لم يكن في سوريـا حينها لجان للدفـاع عـن حقوق الإنسان). فـلا يليق أن يكون جوابهـم هو نفسه حين طالبـت منظمـة العفو الدوليـة بالإفراج عـن هيثم عندمـا اعتقل وكان حسـب المقاسات الأوربية لتلك اللجنة مازال طفـلا في الرابعة عشر من عمره. تلك حسابـات أوربية أما حسابات سجانينا وجوابهم لهذه اللجنة المتدخلـة في شؤوننا الداخلية الوطنية والسياديـة: أنه قد الشنتير، قادر علـى الزواج، وبالتالي يجوز له السجن عرفا (سن الاعتقال غير معروف بالنسبـة لي، لكن لم تسجل ولا حالة اعتقـال سياسي في سوريا لشخص لم يتجـاوز السنتين من العمر). وقالوا لأهله أنهم سجنوه لكي لا ينحرف ويضطرون إلى سجنــه عدة سنوات. أبقوه أربع سنوات ليخرجونه بعدها ويلحقونه بالخدمة العسكرية التي صارت تجوز له إلزاما، فيتسرح بعدها مواطنا مطيعا صالحا لأن يفترس السرطان دمه لاحقا.

لن أنسى تلك الصغيرة كما نسيها القدر عشر سنين في السجن، ليتذرع بـأن سجانيهـا لا يجوز لهم الاقتراح علـى قادتهـم ورؤسائهم، المخولين البـت بقرارات الاعتقـال، أن يستصدروا أمرا مـن نائب الحاكم العرفي بالاستمرار بتوقيف المولودة كما أمها، وأن دورهم ينتهي عند تنفيذ أوامر

رؤسائهــم والإجابة عن أسئلتهم فقط. وبهــذه الحالة لم يسألهم أحد إن ولدت طفلة ما في السجــن حتى يصرّحوا عنها. هي الظروف حالت دون احتسابهــا سجينة، لكن ليس للظروف دخل بإخراجها من السجن، فهذا أمر ليس من صلاحيات السجانين ولا رؤسائهم حتى. فأمر الإفراج حتى عن مولودة يحتاج إلى الحاكم العربي المطلق الصلاحية.

عطَـفَ ذاك الضابـط على تلـك الطفلة وأمر لهــا بتشميسة يومية مع أمهــا في حديقــة المـكان. لم يطل بها الأمــر إذ أفرج عــن أمها ولم يفرج عنهــا كونها ليست سجينة، لكن سمــح لأمها باصطحابها إذ اُعتبرت من أشيــاء أمها الشخصية. طبعا لم يفرج عــن الأم بشفاعة الطفلة، بل عن كل النســاء أشباهها، لأن قضية ذكورهن صارت نافلة بعد مضي كل هذه السنين.

أخشــى علــى الطفلة إن اعتــادت السجن علــى أنه الحيــاة الطبيعية، وشعرت بفقده تضيق ذرعا بالحياة، ولا يمنعها من العودة إليه إلا تعلقها بأمهــا التــي لا يمكن، مهما أحبت ابنتهــا، أن تقبل العــودة إليه أو تسمح لابنتها بالسعي إليه.

السجــن أكثر بساطة وأكثر سخافة من الحياة. لا يحتار نزيله كطليقه بــين أوليــات تتشابه أو تتســاوى، فلديه همّ واحد لا أكـثر وسواه ترهات. ليســ فيه محاذير الحيــاة ولا مخاطرهــا، لا يقلق السجين علــى أهل أو علــى ذاته، لا يجفـل، ولا ينبهر، ولا ينقز. هذا الأمر هــو الذي لم يفهمه ذاك الرجل الذي فاجأني يلكزني من كتفي، بعد أيام قليلة على خروجي مــن السجن، حيث كنت أقف مع عماد صامتــين عند مدخل عين الكرش مــن جهــة الأزبكية، دهشت حينها لهــذا الرجل ينقر علــى كتفي دون أن يخاطبنــي باسمــي، ظننته أحد معــارفي القدمــاء ورغــب أن يفاجئني، فالتفــت إليه بابتسامــة بشوشة، ولولا تجهم وجهه لعانقتــه أقبّل وجنتيه المشعرتــين، لكنه قطع علي استرسالي واجتهــادي لمعرفته حين أظهر لي

أنــه منزعــج لأمر أجهله ولم أفهمــه عليه، لكني لم أكــن بحاجة لحضور بديهتــي، الغائبة دوما، لأعرف أني سبب غضبه. انتبه إلى أني لم أعرف سبــب اكفهــرار وجهه وتعابيره، وبــدا عليه استغرابه وعــدم تفهمه لردة فعلي التي يمكــن أن تفسَّر على أنها سخرية بتجاهلي لسبب غضبه، لكن ملامــح وجهي المهزومة وعيناي المحدقتان كعيون المجانين من دون رَمَشٍ جعلتاه يشرح لي أنه سائق السيارة التي تقف خلفنا أنا وعماد وأنه أمضى وقتــا ينبهنــا بزموره أن نفسح لــه الطريق، لكننا لم نهتــم لزمور سيارته وبقينا مسمّرين في طريقه ممــا اضطره للترجل وتنبيهنا حسيّاً. لم يكن الظــرف يسمــح لأستبقيه وأشرح لــه أن كل الزمامير في دمشق وحتى في واشنطــن لا يعنينــي أمرها شيئا، هممت أن أقول لــه: يا سيدي أنا خارج من السجن الآن، وقد مضى علي سنين طوال لم أسمع زمورا ولا يعني لي أنه منبه لخطر مــا، ولو سمعته هناك لكان إزعاجا وليس تنبيها. فهناك لا يوجــد سيــارات رغم وجود سائقين، وإن عانينــا أحيانا من ازدحام في أمكنة سيرنا، إلا أننا لم نحتج لزمامير، وربما كنا استخدمناها لو توفرت لنــا، أو كان استخدمهــا بعضنا بــكل تأكيد ممن شوّشــ السجن هداهم وصعَّــب عليه التمييز الواضح إن كانــوا يسيرون في الشارع أم في الممر أم في باحــة التنفس، وتساوى عندهــم في مسيرهم إن كانوا راكبين سيارات أم أنهم مشاة. ربما كنت سأقول له كل هذا لو أنه ابتسم لي ودعاني أركب وعمــاد سيارته يأخذنا مشوارا إلى الغوطة التي لم تسنح لي الفرصة بعد لزيارتهــا ومعرفة فرق النوَر الفنية التي شكّلت ذائقة من تبقى أو استجد علــى الطبقة الوسطى. إلا أنــه غادرنا يؤشر بيديه ويهــز رأسه بحركات يمكن أن أفسرها الآن أنها دليل استغرابه ردة فعلنا على زموره.

ليلتي الأولى التي أتحدث عنها هي كل الوقت الذي أمضيته ليلا ونهارا بعــد خروجي مــن السجن قبل أن أتمكــن من النوم، ربما غفــوت أحيانا لحظــات لكــن لم أنم، بــل تواصل زمنــي وصخبي ورجوتي. خفتُ النوم لأني لا أدري كيــف وأيــن وعلى مــاذا سأفيق. كيــف لي أن أتأكد أن أمي

مـن سيوقظني: قم يـا حبيبي قهوتك جاهزة... وليس صوت قفل باب المهجع الضخم الذي يوقظ الميت من فنائه!! هذه الأقفال والمزاليج ليست جديدة، هي نفسها منذ اخترعتْ حضارة العنف سجونا. ولم تهتم العلوم والتكنلوجيـا بتحسين أو تطوير حال السجين واكتفت بتمكين السجان من السيطرة على مساجينه. قفل باب المهجع هذا لم يكن الأسوأ الذي عرفته بـل متراسـ تلك المنفـردة القبر حيث وجـدت نفسي بعدمـا اختطفوني وأفـردوني فيهـا كان هو أسوأ صـوت يمكن للبشرية تصـوره. إنه الشيء الوحيـد الذي كان يمكنـه أن يُغفلني عن آلام جسـدي المشوه والممزق في أيامي الأولى من فقدان حريتي. ليتصور أي منكم مكانا ليس منفردة لكنه صغـير بقدرها: متران للطول، ومثلهما وقليـل للارتفاع، وواحد للعرض، مظلـم كالعتم، قـذر كالظلم، رائحة بطانياته توقـظ الغائب عن الوعي، كحـالي، من غيبوبته إن قاربهـا أنفه غير قاصد. يخـاف إن فتح سجان البـاب فاصطـدم بقدميـه، إن كان مثلي بطول هذا المـكان الافتراضي، أن يجلده السجان عقابـا أو يتسلى، حسب نرجسيته، ببضع جلدات شبه تائهـة تصيب أي مكان من الجسد وكأنها كانت تعبر المكان بحال سبيلها حـين اعترضها هـذا الجسد، جسدي، صدفة أو قصـدا أو طيشا، بزمن ليس أسعد أزمنته.

يسمع المجلود صـوت صفعة الكرباج، يتابع هرولته ثانيا جسده مسبلا يديـه تكادان تلامسان الأرض وكأنه يقلد قردا أو يداعبه، لا يعنيه سماع ذاك الصـوت فقد اعتاد أن يسمعه طـوال الوقت... يسمع بعد خطوتين أو ثلاثـة صوت نفسه متأوها أو متألمـا أو مستجيرا... يدرك أن الجلدة كانت من نصيب جسده. فالإحساس بألم ضربة هذا الكرباج يأتي لاحقا متأخـرا عن الصوت، فمن شدة الألم لا تستوعب الأعصاب البشرية مثل هـذه الإشـارة العصبية، إذ تراهـا تنتقل بأسرع من الضـوء بين جلدك ودماغـك، ولشدة سرعتها يعجز الدماغ عـن استقبالها أول الأمر فترتد

عنــه إلى رأس العصب في الجلد من جديد لتطجّ عليه وتعود الكرّة صوب الدماغ مرارا حتى تهدأ سرعتها، كما الطابة المجنونة.

بعضـ السجّانــين، على خــلاف غيرهــم، استهواهم الجَلْـد فصاروا يتصيدون المساجــين المستفرَدين بحيل يوقعونهم فيها ليجلدوهم. ليسوا طبعا بحاجة لسبــب للجلد، فهذا مباح لهم طوال الوقت، خاصة إذا كان السجين في منفــردة في هذا الجناح ليحلّ جَلْده ويباح جِلده لمن رغب من الجلاديــن أو حاملــي الكرابيج. لكنهم كانــوا يرغبــون أن يوقعوه بخطأ حســب تصنيفهم للخطأ والصواب، مــع أن كل مستفرَد هنا خاطئ حتى ينقــل لمكان أرقــى. إلا أنهم على ما يبدو يفعلون ذلــك إنصافا للمستفرد كي لا يشعر أنه مظلوم، إذ يتوجب عليه أن يشعر بأنه خاطئ بالترافق مع إحساســه بــألم الجَلد. وربما يفعلون ذلك لاستكمال شــروط التسلية، إذ تتطلــب اللعبة أن يصرخ السجان على السجين شاتما موبخا... واعظا، لهذا يحتاج الأمر لخطأ ليس إلا. فمثلا، كان الواحد من هؤلاء ينادي على المستفردين المسترحضين بترتيب مختلف لنسق المراحيض واصطفافها، وكان علــى الواحد منا أن يمسك بديهته بإحدى يديه ويبقيها حاضرة ولا ينساها في المنفردة، وباليد الأخرى يجلي صحون الميلامين، التي تعرفتها هنــاك، ويغســل وجهه وقفاه من تغــوّط عُرفي كالأمر العــرفي الذي أنهى حريتــه وحياته ومستقبله وصحتــه بجرة قلم من نائــب الحاكم العرفي، وعليه أن يضبط وقته حسب الوقت غير المحدد بذهن سجانه، فقد يكون دقيقــة واحــدة أو نصف ساعة فهــذا عائد لاعتبــارات لا تعتبره، وكذلك عليــه الانتباه لتذاكــي السجان حين ينادي بتسلســل مخالف أو عشوائي، والنهوض الفوري رغم وهن العضلات الممزقة من التعذيب التي ما عادت تستجيــب لأوامر الدماغ واستقلت عنه، والمهــم ألا ينسى الصابونة وملء قصعتــه بالماء، كل ذلك بــآن واحــد. كان الأسوأ بالنسبــة لي، والأفضل لغــيري، أن يختــار سجان من هــؤلاء زنزانتي أن تكــون الأولى بدور فتح الأبواب، فهو يتسلل بين المنفردات دون أن يشعر أحد به، آملا أن يضبط

أحـد المستفرديـن يتحدث بالكلام أو بالشيفرة مـع مستفرد آخر، ليقيم مأدبة تعذيب له يدعو إليها زملائه من شاكلته.

ليستطرد من بقي معي منكم ضمن هذا التصور الافتراضي ويتخيلني نائما أو ساهيا أو في غيبوبة الألم، ومن دون أي صوت أولي أو صوت بعيد ينـذر بقدوم البـلاء، يأتيني صوت الجنون... صـوت النهايات الحادة، يقصل الوجود عن الزمن، صـوت الترباس يفتحه شيطان رجيم بضربة قويـة كـي لا يكلّفـه محاولتين إن أخفـق بفتحه بهدوء. مـزلاج اسطواني حديدي ثخين يخبـط، عند فتحه، بمرد حديدي سميك يمنعه الانفلات، ملحـوم على بـاب مـزدوج التصفيـح لا ليخمّـد الصوت، كمـا الخشب أو الحجـر، بـل يضاعفه لحـدّ يفوق التصـور والتحمّل. أمـا في الإغلاق يضاف صـوت طبش الباب... يسبق الأصـوات الأخرى ويُستبدل صوت المـردّ بصوت انغلاق المـزلاج، وأحيانا يكون مضافـا لا بديلا لحسم أمر الإغـلاق. لا ينفع مع هذه الأصـوات إغلاق الأذنين باليدين ولا بالإليتين، فهي تَدخلني عبر جسدي كلّه، من مساماته وشقوقه، فإن لم تجد متسعا لها تفتح جروحي واهتراءات جلـدي لتكون أشد ألما. فإن كانت الأصوات التـي يعرفها البشر لا تجـرح فهذه كانت تمزّق جروحـي. كان يُفتح علي البـاب تسع مـرات ويغلق تسع أخرى، هـذا في اليوم القصـير، أي اليوم الذي لا يشمل تحقيق أو حمّامات.

كان يمكـن أن أحتمـل هـذه الأصوات أكثر لـو لم يمـرروا ذاك التيار الكهربائي الصارع في جسدي طوال أيام وأيام وأيام حتى تلفت أعصابي. أنـا لست مَن أسمى طريقـة التعذيب هذه بأنها التعذيـب بالكهرباء، هو قال ذلك: والله لعذبـك بالكهرباء يا ابن...، هاتولي الكهربا...، كنت مطمشـا ومربوطـا ومكلبشا، في المـرة الأولى، وفي كل مـرة، حين عقدوا علـى أذنيّ سلكـين معدنيين باردين،...، ثوان وإذ بـي أخرج من الزمن ومن الوجود الـذي أعرفه ويعرفه كل من سكن هذه الأرض. لا أعرف إن صرخـت في تلك اللحظات، كيـف لي أن أعرف ذلك وأنـا خارج الوجود

الحسـي. لكن لحظـة يتوقف التيـار كنت أشعـر بالغرفة مليئـة بصراخ غير بشـري، فأقّدر أنه صراخـي فلا يمكن لأحـد الموجودين ملء غرفة بالصراخ إلا أنا.

الكهربـاء لا تـؤلم ذراعا أو ساقـا أو موضعا محـددا في الجسد، إنها تأخـذه كلـه، تنصبه أمام المـوت وجها لوجـه، تفرد أبجديتـه فيستحيل مفـردات وأحرف بـلا معنى. إنها تجربـة للفناء، من تطلـه يعرف أن لا عزرائيل هناك، ربما خجل أن يكون شريكا لهؤلاء الشياطين.

صـرت بعد المرة الأولى أعرف مـن إبعادهم أيديهم وكرابيجهم عني، كـي لا يتكهربوا، أن لحظـة الكهرباء آنـت، وأن الكهربـاء ستدخلني ولا أعـرف من أيـن ستخرج، ربمـا من عيـوني. فالكهرباء هـذه تنفض كل الجسـد وكأنها مالكة الأرض فتنفضه رافضة وجوده على مملكتها. كنت أشعـر بهـا تبغضنـي وكأني عشيق سابق تخلـى عنها، بنذالـة، لغيرها. فتتمنـى إن صادفتنـي رغمـا عنها وعنـي أن أتلاشـى... تنشق الأرض وتبتلعنـي... أو تنشق السماء عن صاعقة تحرقني وتحيلني رمادا تذروه في عيـون غريمتها. فيذهب بها الغل أن تتمثل هي الصاعقة: تستجمع ما لديهـا من غضب وما أوتي لها مـن قوة وما دفنه قلبها من حقد وكراهية وتزعقنـي فأزعـق، فأكاد أغيـب عن الوجود لـولا صوت خبيـط رأسي، وكأنـه يتحطم بين مسننات وأذرعة صدئـة لمحرك دبابة خال من الزيت والشحـم يعجز عن الإقلاع، فيهرس رأسي المرة تلو الأخرى تحت إصرار سائقهـا الذي يبدو أنـه يستمتع بأن لا يطحن رأسـي ويريحني. فصرت بعـد المرة الأولى أعـرف نهاية التيار عندما تنهال مـن جديد كرابيجهم وأرجلهـم علـى جسدي المـزرقّ والمكتّف على الكرسـي الرخيص مثل كل أدوات التعذيـب في بلادي، كلها رخيصة ما عـدا أحذيتهم الأوروبية، بل كلهـا لمامة من البقايا، فالكرابيج بقايـا كابلات هواتف رباعية الأسلاك مغلفة بشبكة من الأسلاك الفولاذية الناعمة التي يمكن أن تفتق الغلاف البلاستيـك فتفتق جِلد المجلود، فهذا لا يهم. ومولّد الكهرباء الذي رأيته

من تحت طميشتي المرفوعة دوما بحدبة أنفي، هو هاتف عسكري ميداني تالف وقديم لا ثمن له ولا قيمة، لا يحتاج إلا لبطارية تكفيه ليصعق ثورا. فبالتالي آلافنا السجينــة لم تكلّف السلطة السورية شيئا، ماعدا للأمانة سجــن صيدنايــا الــذي كلف عــدة عشرات مــن الملايين، لكــن في غيره حشرونــا كالنقانــق في أقبية أبنية القطاع العــام المبجّل، وفي سجن المزة وتدمــر الموروثين من عهود وسلطات سابقة، قد تكون سلطات الاستعمار، فأنا لا أهتم بتاريخها.

سكننــي صــداع مزمن ودائم مــذ ذاق جسدي كهربــاء العذاب، حتى بــت معروفــا به وبأشــكال وألــوان عُصابــات رأسي التــي كان يساعدني بربطهــا أقويــاء مهجعي، حتــى عصي عليهــم الأمر فصــاروا يستعينوا بقطعــة معدنيــة لإحكام الشــد ليطقطق رأســي عل ذلــك يساعد كمشة المسكنــات والمهدئات التي أتناولها مــرارا طوال يومي. بعض هذه الأدوية وصفتهــا لنفســي، وبعضهــا وصفوها زملائــي الأطبــاء أو غيرهم ممن خبروا المهدئات والمسكنات، وأغلبها وصفوها أطباء المستشفى العسكري حيث أرسلــوني أكثر من مرة بعد سنين من الإصابة. هناك عاملنا أغلب الأطبــاء بحيوانية تتناسب مع طريقــة نيلهم شهاداتهم أو حصولهم على مناصبهم. فأحدهم على سبيل المثال أصرّ أن يصف لي جرعة مضاعفة مــن دواء مكتــوب في نشرته بلغات أجنبية تحذير شديــد أن جرعة كهذه وبالمــدة التــي حددها كفيلــة لتمويت (الشعــيرات) الدمويــة البعيدة في الأطراف، وخاصة في عضلة القلب.

مازلــت لليوم أتناول جرعات كبيرة يوميا من هذه الأدوية لكن اخترت أبسطها وأقلها ضررا لأن جميعها لم يفدني ولا مرة، لكن هذا لن يجعلني أقطع الأمل من أن تفيدني ذات يوم ولو مرة واحدة، مع اعتقادي بأن هذا اليــوم لن يأتي حتى أشعــر بحريتي من جديد وحينهــا سينتهي صداعي وآلام ظهري.

للإنصـاف والمصداقيـة ليس لكل أبواب الزنـازن الأثر نفسه على كل سجين وبكل وقت. فزنازين سجن صيدنايا تستحق تسمية كل واحدة منها زنزانة لاتساعها وإنارتها ووجود الماء والمرحاض فيها، فيستغني المستفرَد عـن فتح بابهـا. كان عليهم، على ما بدا، أن يعرّفوني عليها وكأنه مكتوب علـى جبين سجون بلادي تحـت لوح «وما ظلمناهم ولكـن كانوا أنفسهم يظلمـون» أن أستكشف كل زنازينها لأكتب عـن رحلاتها القسرية. كانت زنازن سجن صيدنايا جديدة لم ينزل فيها قبلي نزيل، نظيفة بيضاء.

هـذا المكان، أقصد ذاك المكان غير الـذي أكتب فيه الآن أو تقرأ فيه، فـلا يمكن وجود هـذا الكتاب فيه وإلا لخسـر تفرّده الذي أقـول فيه أنه التجربة الحسية الحقيقية لمعرفـة العدم: زنازن تتشابه وممرّات تتماثل لتتشـكّل معا: متاهة تصعـب معرفة سبلها ومخارجهـا، صمتٌ عدمي لا يُسمـع فيه نأمة من ضجيج الكـون، وكأني خارجه؛ مكان خارج حسابات اينشتاين للزمن والسرعة، اضرُبّ الباب ما شئت... اصرخْ ما استطعت فلا يسمعـك أحد ولا تسمع صدى صوتك: إنـه العدم... يمكن لأيّ كان أن يجرّبه بشكل حسي. زنزانتك هي كل الكون بالنسبة لك، وأنت الوجود الحقيقي الوحيد فيه... وستكون متأكدا أنه لا بد من وجود إله في الأعلى ليس خالقك ولكنه سبب وجودك هذا، وسبب هذا الوجود الذي أنت فيه، لـه كل القدرة عليك: يفنيـك أو يخرجك من كون ليبعثك في كون آخر. لا صرصار ولا جرذ يتيح الشك بهذا العدم... يشك المرء بوجوده، فوجوده هنـا مطلق لا يُنسب لشيء ولا لحركـة. تتساءل في كل لحظة: ماذا يمكن أن يكون خارج هذا المكان؟ أتراه كله عدم؟ أم هناك وجود خارج حواسّك تدركـه بتجربتـك السابقة، فتحكـم بعقلك أنّ وجـودا كان قبل سقوطك بهـذا السِّفل، لكن لا وسيلة بين يديك الآن لتعرف إن كان هذا الوجود ما زال موجـودا، فربما تحوّل كلّـه أو بعضه إلى عدم كعالمك الأنت فيه، وقد يكون ما تذكره عن وجودٍ مررت فيه خدعة شيطانية اخترعَتها مخيلتك، أو خدعـة بشريـة تجعلك تظـن أنك هناك في داخـل ذاك العدم مع أنك

مستلق الآن في سريرك في حضن زوجتك. هنا فسحة للشك المطلق للاأدرية المنفلتة. كيف لك أن تعرف أن لا طائرة اخترقت طوابق ذاك السجن فوقك كبرجي التجارة، وهل من تركتهم هناك فوق ما زالوا أم زالوا؟ كيف يمكن أن يثق العاقل بعقله من دون معطيات حواسه؟ هنا ترجو مجيء السجان، وليخبط المزلاج كما يريد وقدر ما يريد، بل تريد أن يملأ المكان صخبا وضجيجا يصدع رأسك ولن تستخدم المسكنات ولا العصّبات، تريده أن يبقى قربك يتلصص عليك وعلى هذياناتك راضيا باستباحته لخلوتك. فإن بقي سأصدق عقارب ساعة يدي، ومن دونه دقاتها كاذبة، فقد لا تكون ضُبطت على هوى حركة الكرة الأرضية، بل اعتادت حركة مستقلة عشوائية من ذاكرة ما، وأبقت عليها في سكون العدم هذا.

لو أخبرتك يا صغيرتي كل هذه الخبْريّات عندما رافقتني، في ليلتي تلك، أطلّ على شوارع دمشق، نجول مع رفقة نسيتهم، هل كنتِ نزلتِ من السيارة أم بقيتِ... يا ليتك كنت بقيتِ معلّقة بمسند مقعدي طول العمر، أنا أقود السيارة وأنت تغنّين فيروز: «ياصبح روّج.. طوّلت ليلك.. خلّيت قلبي نار، بلكي بتجي أختك تغنّيلك.. بلكي بتجي جلنار». ليتك لم تكتف بملامسة كتفيّ، يا ليتك أمسكت بهما تثبتينهما بالمسند لاحلّوت الحياة وهانت: أنت تغنين وأنا أتسوسح برخامة صوتك أقود السيارة طرَبا. كيف كان لي أن أعرف يومها، يا صغيرتي، أنه يجب ألا أوقف السيارة وأدعك تنزلين منها، كيف لي أن أعرف أن نظراتك تلك التي ألتقطها في المرآة، وأنفاسك الحانية تدغدغ ظهري، أن هذا حب. فمنذ ساعات، كنت لم أزل بعد في السجن، وهناك لا يدخل الحب والعشق إلا كذكرى مشكوك بصدقها لحاجتنا إليها، هناك تجدين بسهولة ووفرة أكواما من الكراهية واللؤم والقهر. بربك، كيف لي أن أعرف، لحظتها، أن شعرك المسدول على عنقي يحنو علي ولن يخنقني؟ كيف سأميّز بين الحب والكراهية! أنا لا أعرف أصلا، لحظتها إن كانا متمايزين...

وهل تصدّقـين أني عرفت ذلك الآن؟ نعم، أستطيع أن أجزم: لو عرفتك قبـل أن أستحبس لما أوقفـت السيارة لليوم أجوب بـك جبال هذه البلاد وصحاريهـا، أعرّفك جمال الجرود ويباس الصحـاري، فأنتِ لا تعرفيها مثلـي، وأنا مثلك لم أكـن أعرفها عندما كنت مثلك لا أعرف من الجمال إلا مـا علّمـوه لي في مدارسنا: جمال مقلوب يملي علـى الواقع جمالا من ذهـن متحجّر لا يرى في الواقع جمالا موجـودا فيه. شأنكِ كرفيق رحلتي الأولى إلى اللاذقيـة، عندما لم يصدّق متعتـي بمشاهدة الطريق المطلّة علـى الجرداء، ولن يصدقنـي الآن إن عرف أني من يومها أستمتع برؤية هـذه الطريق أكثر من منظر البحر، ولم ينتبه إلى أني أمضيت سنينا لم أر الـتراب ولم ألمسه ولم أشمه، وكان كل ما أراه إسمنتا وحديدا ووجوها كالحـة ليس فيها شيئا من جمـال ولا حياة، وعيونها صفراء لا بريق فيها وتفـوح منها رائحـة السجن النتنة. هـل تصدقـين الآن أن لدي رغبة لم أحققها: أن أتمرّغ في فسحة تراب أمام الناس كما تتمرغ الحيوانات.

وصلـت إلى اللاذقية وحـدي، بعد أن نزل رفيق سفري في جبلة. نزلت من الباص وكان علي السير ربع ساعة تقريبا لأصل المكان الذي أقصده. طوال مدة المسير تلك لن تتوقف دموعي لحظة. داريت وجهي من الناس أخفـي حـالي. لم أعـرف حينها سببا لبكائـي: اللاذقيـة ليست مدينتي لأبكيهـا، وإن كانت مدينة أبي، ولا أذكر منها إلا اعتقالي فيها مصادفة. بكيـت لأني وجـدت نفسي وحيـدا لأول مرة بعد خروجي مـن السجن في مدينـة قهرتني مرتين. فقبل هذه الرحلة لم أبق وحدي أبدا منذ خروجي مـن السجن. يبدو لي الآن كأني تقصّـدت تجربة أن أكون وحدي حينها. كنت لا أترك نفسي لوحدي لحظة بحجة أني أظن بنفسي أخرقا أحمقا، يمكـن أن أسبب الأذى لنفسي ولغيري. لم يتركني صديقي زكي في أيامي الأولى أعـبر الشـارع وحدي ولا مـرة، أظنّه رأى خوف وائـل السواح من عبـور الشارع يوم أُطلـق سراحه قبلي بيومين، فزكـي ككل سكان دمشق استغـرب حيرة وائـل وهو لا يعرف وائل يومهـا ولا الآن، ولم يره، بل رأى

خوفـه وعرف مصابه، وإلا لماذا كان يمسك يدي كلما اجتزنا شارعا. أنا لم أطلب منه ذلك، وأصلا لم أكن منتبها لعجزي عن عبور الشوارع، فكل مـا أفعله مسك يده بتلقائية الطفل المدرّب قبـل نزولنا الرصيف دون أن يطلـب مني هو ذلك، لأنه من المعيب بحقي وبعمري أن أنتظر منه، في كل مـرة وفي أي مـرة، أن يمد يده يمسك يدي. كانـت يده، ويد من ساعدني أيامهـا، مصدر أمـان لي لعبور الشوارع ولأي فعـل حركي تتطلبه حياتي الجديـدة. فلن أنسـى كيف كنت أشد علـى يدها، يد صبيتـي السمراء، عندمـا أخذتني تشبك يدي غراما فرحـة بقدومي، فجالت بي شوارع في دمشـق أحببت السير فيها طوال عمري. مشينا في طريق الجسر الأبيض الـذي طالمـا سرت فيه نازلا من العفيف على رصيفـه المتدرّج أتفرج على تنـوع واجهات محلاته. لكن هذه المرة كانـت الرحلة شاقة، فكيف لي أن أنظر إلى المحلات وأتحاشى صدم المارة وأنتبه لدرجات الرصيف وأعبر الأزقـة الكثيرة وأغازل سمرائي في وقت واحـد!! استحال الأمر علي فلم يكن جسمي وعضلاتي وأعصابي قد اعتادت بعد ضبط أكثر من ظرف. لم يفـت سمرائي ارتباكي، ففسـرت لها الأمر. ضحكـتْ وحرّكتْ رأسها دلالـة تفهمّها وأخذتني إلى منطقة أقل تعقيدا لتستأثر بي كلي. لا أظنها أفلحـت في محاولتهـا، ولم يكـن ذنبي، فليسـ بإرادتـي أو برغبتي عدم التركيـز أو الاهتمام بأكثر من أمر واحـد فقط... بل كان يستحيل علي فعل الاختيار في تلك الفترة: كيف سأعرف أن الأهم لي هو شرب الشاي أم سهرة مع صحبة، شرب القهوة أم مداعبة صبية؛ إن اخترت شيئا كيف سأضمن أني لا أفوّت أفضل منه. كنت أريد كل الأشياء مع بعضها، وكأني غير واثق أن حياتي الطليقة ستطول لأنال كل ما هو متاح لي حينها، كنت أخـاف إن فاتني شيء ألا أناله ثانية. هو خوف دفين في أعماقي منذ ليلة فقـدي حريتي، عندما عرفت أني فوّت الكثير، وعشت من يومها أحلم أن أستعيده ولم أستطع... فحلمي خبا وعمري ضاع، وما كان علي أن أنهيه في العشرينات توجب علي أن أبدأه في الثلاثينات.

كيف لي أن أعرف، في تلك الساعات، أيّ الأكثر أهمية لي ولماذا، وبأي مقياس أقيس أهمية الأشياء والبشر... أناي لم تكن قد تشكلت بعد. فالشخص الذي تعاملتم معه في تلك الفترة هو مجرد كيان من دون أناه، فأناه الموجودة، بحكم العادة، هي الأنا المحبوسة، وأناه الطليقة من المبكّر أن تتكون خلال ساعات، فهي تحتاج لأيام وأسابيع. هذا ما ظننته حينها لكني اليوم واثق من خيبة ظني كلما نظرت إلى نفسي متسائلا من أنا، فلا أرى إلا تلك الأنا السجينة اللعينة تظهر لي في المرآة وفي الأحلام. لم يفهم علي أحد هذه المعضلة حينها، ولا اليوم. كنت أقول لهم يا ناس صدّقوني لا أعرف ماذا أريد وأي من الخيارات يجب أن أختار. اختاروا لي إن أردتم مساعدتي ولا تتركوني لحيرتي، فاختياري لن يكون غير خيار سجين أتنكر له. خذوني بيدي أجرّب كل الأشياء، تحملّوا أنتم المسؤولية ولو لحين قصير، فأنا ما زلت غراً لأقرر وأختار.

لم تصدقني عروستي عندما قلت لها أني لا أعرف إن كانت تروق لي أو أحبها. كنا جالسين على شرفة بيتهم أحاول تبيان ضرورة انفكاكنا كي لا أظلمها بحيرتي وتيهي. كيف سأُفهمها مفرداتي ومشاعري؟ كيف ستتفهم قولي: إن نطقتُ بضمير المتكلم عن السجين لصدقتُ القول أن كل نساء الأرض تروق لي حتى أم سليمان. وإن تحدثتُ باسم ذاك المراهق المختال، قبل السجن، لن ترضيني حتى الأميرة ديانا. فأنا يا مسكينتي لا أثق بمقدرتي على اختيار ألوان ملابسي، لهذا تريني ألبس دوما قميصا أبيضا وبنطالا أسودا، رغم ما يعرضني هذا لإحراج في المطاعم حين ينادوني الزبائن ظنا منهم أني كرسون في المطعم. لكن إن أصررتِ على أن أختار وأقرر باسم الطليق الجديد فسيكون قولي انتحال صفة الطليق الحر الذي لم أصره بعد. فكل ما أقوله عرضة للتغيير بكل لحظة لأني أتغيّر كلني في كل لحظة. فلا تغامري بربط مصيرك بمن يمكن أن لا يكون له مصير.

لم تستطـع فهـم مـا أقولـه، وكذلـك كل الطلقـاء: لغتينـا مختلفتين وانفعالاتنا متباينة، كلّ منا يقدّر الأمر غير الآخر، يفرحون لما لا يُفرحني ويُغضبنـي أمر يمكـن أن يُفرحهم، يحبّـون ما لا أرغب به ومـا أحبه قد يمقتهـم. كنت بـواد والطلقـاء في وادي، بل إننا في عالمـين مختلفين. أنا الأضعف بالمقارنة معهم، ليس لأنني قليل وهم كثر بل لأني أحتاجهم وهم في غنـى عني، كل الأمكنة لهم والسجن مكاني، الحياة حياتهم وليس لي غـير السجن أو العزلة ما لم أرضخ لشروطهم: أن أتعلم لغتهم، وأتمرّس علـى انفعالاتهم، وأتقـن أدائهم، ليس لأنهم على صـح بل لأني لا أعرف الصـح مـن غيره. ومع ذلـك لا أقبل أن أكـون مقلّدا لهم، كمـا لا أمتلك القوة لأكون مـا أريد. وماذا يمكن أن أريد إن كنت أتنكر لأناي الوحيدة، أناي السجينة.

عانيـت في البدايـة، وبعضٌ غـيري، مـن إيجـاد تسويـة مـع الحياة وأصحابهـا... أن يقبلـوني منهـم دون تمييـز عنصـري وألا يشـار لي بالسجـين السابق ناقص الأهلية لأكون واحدا منهـم: أعمل ما يعملون، وأغضب كمـا يغضبون، وأنام بـلا كوابيس مثلهم، وأعشـق نساء منهم. ولكـي أتأكد أني لست الوحيد على هذه الحال كنت أسأل أشباهي عندما ألتقـي أحدهم: هل عشقت؟ كان الشعـور بالشغف بامرأة أصدق مقياس يمكـن اعتماده لمعرفة استعادة الـروح. فكلنا بحاجة للمـرأة، فهي خيار جديـد بالنسبة لنا. أمـا الآخرين ليسوا خيارنا، هـم ضرورة مفروضين علينـا كشـروط لحياتنا الجديدة. ربما لهذا لا نرغـب بهم. كما التسوية مـع المـرأة أسهل إذ يهـون الكبرياء وتسيطـر الغريزة والحرمـان. وائل هـو الوحيد من بين مـن سألتهم أجـاب بعد حين بالإيجـاب. لم أصدّقه يومها، وتذكرته بعد وقت، حين اجتاحتني لحظات عشق أفقدتني صوابي ورشدي، حـين مشيت مع حورية غفلتُ عنها طوال ذاك الوقت؛ لم أنتبه، طيلـة أيام تيهـي التي سبقت ذاك المسـاء، لبريق عينيهـا وحنّية صوتها رغـم أنهـا لم تغنّ لي، بل لفّـت «الكلبة» خصري بذراعهـا. لم أنتبه قبل

همس يدها أن تلك الحنّية التي تشي لي بها عيناها كانت تخصني بها وحدي وليست عطاء مباحا للجميع مثل زخّة المطر التي هطلت علينا لحظتها، وكأن السماء شاءت أن تكون شاهدة، بل متواطئة معها وربما معي لألفّها وأداري رأسها تحت رأسي أشمّ عبق الحب، وأقبّله. لم يكن المطر سببا ليبدأ جسدانا التحاما عرفت منه لأول مرة ولآخر مرة أن الوركين يتعشّقان، حين شعرت بوِركها ينغرز في فخذي ليكمل التحاما خلط جسدينا، فما عدت أميّز يدي من كتفها ولا خاصرتي من نهدها. وحين شاءت لحظة القدر العزول انشققنا وكأن عينا حاسدة فلقت روحا إلى جسدين يفضح واحدهما بلل نصفه وجفاف نصفه، ليحار ناظر لأحدنا كيف ابتل وجف نصفه. افترقنا لتبقى روحانا دائما على نصف بلل ونصف جفاف. لو كانت روحي نديّة لحظتها لبللت روحها وأنعشتها فرحا وحياة. لكن الحبس كان ما زال يسكنني، كما الآن، وأناي العاشقة لم تكن عادت بعد، كما الآن. فكيف لي أن أحسم أمرا من دون الخوف من نتائجه.

فيما مضى في حياة أذكرها عشتها قبل سجني كنت شابا انفعاليا، لم أكبح يوما انفعالاتي ولم أضق مرة من شغف، كنت أحتضنه مستمتعا بذاتي تنقاد معه. أداريه من حكمة الآخرين، فلا أقبل كبحه أو التنكر له لأبدو لهم أقوى وأعقل وأكثر مناعة وصلابة.

هزمني السجن فلم أعد أقوى على استحضار هذه الروح والتعايش معها، ولم أستطع حمايتها منه مثلما صنت أجهزة جسدي ووظائفها. محاها مني ورسم على وجهي وروحي كآبة استعصت على الأطباء وكل مضادات الاكتئاب، ولونني بألوانها الكالحة المنفرة. أغسل يديّ ووجهي مرارا في اليوم بلا فائدة، ليعرفني ناظري أني كئيب وأني لا أبالي بما يدور حولي وبما يلم بي، إلا كمتفرج. وبات محدثي أو مراقبي يظنني لا أفهم ولا أدرك حجم المصيبة أو البلية التي وقعت علي أو عليه، وتحتقرني المرأة حين لا تعود شاغلي بعد أن أزرر قميصي وأرحل.

لم تفـدني الأدويـة والأصباغ بتغييـر سحنتي أو ظاهـري أو بمحو لون اللامبـالاة السجنيـة مـن عيـوني، فقلـت لنفسي ربمـا الأمـر ليس كما أظنـه فقد يكون افتقاد لمهـارات كما العضلات تفقـد مهاراتها ولياقتها لعـد استخدامهـا، وكل الأمـر أني بحاجة لبعض الوقـت والتدريب لتعود حيويتـي. فصـرت حينما يعترضني حـادث ما أستحضر حـالات الناس في ظـروف مشابهـة، وأستذكر حـالي السابقـة، وأستعـين بمشاهد من السينمـا والتلفزيون. فصرت إن جاءني أحد، أو جئت إليه، يشكو فاجعة أو نكبة أغضّن وجهـي وأبربر بكلمات لا يسمعها وأحرك ذراعايّ ورأسي بطريقـة تظهـرني متأثرا، وربمـا أضمه، وقـد أبكيه، لكـن أبقي عيناي بعيـدة عن نظراته. وصـرت إن بادلتني امرأة تلك الكلمـات أو اللمسات التي يعتمدها أي رجل وامرأة يتعشمان ارتباطا عاطفيا، أظهر لها الكثير مـن الاهتمام: أتصل بها مرارا كل يـوم، وأرسل لها رسائل على الموبايل. أتدخـل، متعاطفا، بكل صغيرة وكبيرة في حياتهـا. أصر على أسناني إن ضممتها، وأداعب بقاعا في جسدها أهملها رجالها الذين سبقوني إليها. جاهزا إن دعتنـي إليها أقطع المسافات وألغـي التزاماتي وأكون حاضرا عندها حين تريـدني أو تشتهيني. أمتعها بغيرتي من زوج أو طبيب لمسها بمجـون. ألف كتفها سائرا في شوارع الشام، أقبّلها على مرأى من المارة، أشدها من يدها نزلـف مداخل بنايات مظلمة لأنفخ في جمرات جسدها الخامـدة، وأجيبهـا: إن سألنـا أحد السكان حين يرانـا سبب وجودنا في بنايتـه، سنجيبـه أننا نبحث عـن بيت حمزة، فإن استغـرب العلاقة بين وجهـي المحشور بين نهديها وبحثنا عن بيت حمزة ركضنا هاربين لاهيين كمراهقين أراد كل منهما التعرف على بيت حمزة الآخر.

نجحـت في أداء دور الإنسان الشغوف، لكني لم أصره... بقينا اثنين، هـو ملهمي وأنا أمثله. هو حقيقي رغـم عدم وجوده، وأنا زائف بوجودي. يعتقد الكثيرون أنني هو، لكنها كانت تشعر أني لست هو فتسألني مستغربة مستنكـرة لماذا لا يمكنني أن أكونه عندما أكون في حضنيها تلفني بيديها

وساقيها. هو العاشق وأنا مندوبه. ربما كان مشغولا عنها بسجن أو بامرأة أخرى حين ندبني عنه إليها. رضيت، علني أصير عاشقا. أتقنت دور العاشق حتى فقت كازانوفا، لكني لم أصر عاشقا أصيلا، بعد السجن، ولا إنسانا حقيقيا.

بعد السجن فقدت إمكانية حسم أمر أو إنجازه. قبل السجن كنت أنهي كل أموري حسب ما أريد لها من نهايات، دون خوف من تبعاتها، وما كان يهمني كسب رضا الناس عن تلك النهايات أو أن يروها غير مكتملة. الآن فقدت مهارة الإنهاء، تبقى أموري معلّقة خوفا من مسؤوليتها، وربما اعتيادا على عدم الاهتمام. فالسجين السابق لا يبالي بالأمور، ليس لأنه كسر خوفه، أو كَسُر أي صار كاسرا، وأنه لن يصيبه أكبر من مصاب السجن الذي ذاقه كما يتصوّره الغير، بل لأنه اعتاد اللامبالاة واللارغبة، وملأه الرعب من مذاق دوامة الموت. هو يخاف أكثر من غيره لأنه عرف اليوم الأول للسجن، اليوم الذي ينسي حليب الرضاعة ويغلّف الذاكرة فلا يظهر منها سواه. فإن بدت عليه شجاعة فهي فقد الإحساس بالفروقات، هي تطبّعه بسيّانية الخيارات التي تحرمه متعة الإنجاز.

حاول كثيرون، بعيد خروجي من السجن، مواساتي: أنت كنت في سجن صغير ونحن في سجن كبير. قولهم هذا يغيظني لا يواسيني. وكأن بعضهم حسدني على تميّز نلته دون إرادتي: إن بنيلي، حسب اعتقادهم، شرف النضال والسجن، أو فخر شهرة زائلة مقيتة من اهتمام الناس في استقبالي في تلك الأيام، فالاهتمام الذي يناله السجين فور خروجه من السجن يتحول عبئا نفسيا عليه لاحقا، فلن يلبث الناس أن ينفضوا عنه لأعمالهم ومتعهم واهتماماتهم التي لا تتسع له، ورغم درايته بأن هذه الأضواء المسلطة عليه لن تدوم، إلا أنه لا يستطيع استيعاب تهميشه بعد التمام الناس عليه، مع أن قسما منهم لم يأت إلا للفرجة على شكل السجين وهيئته، فهو بالنسبة لهؤلاء ليس أكثر من نشاذ تطيب لهم الفرجة عليه في طريق عودتهم إلى بيوتهم.

كان بعبارتهـم تلـك «أنت كنت في سجن صغـير ونحن في سجن كبير» استخفافا بذلّ السجن، واعتباره فقط مكانا أضيق مساحة وجغرافية من الحيـاة. وقد عـبر عن هذا التصور أو بالأحـرى الموقف بعد سنين طويلة شاعرهـم الكبـير أدونيسـ (جريـدة الحيـاة ٢٠٠٥/١/١٣) معتبرا أن السجـن في سوريا تحديدا ليس أكثر من «قيد مادي محدود». وقد انقض علـى هذا القـول لأدونيس أكثر من كاتب وصحفي سـوري يستشهدون به وكأنهـم وجدوا ضالتهم أو مرجعيـة شرعية لما كانوا يقولونه طوال سنين وعيهم وثقافتهم.

لكـن أصحابي الذين كانوا يقولون لي هـذا القول فربما أراد بعضهم، بـلا وعيه، أن لا يترك لي ميزة عليه فاعتـبر نفسه أيضا كان سجينا، بل وفاقنـي بـأن سجنه كان أكبر مـن سجني الصغير المقـدور عليه لصغره وضآلتـه. استكـثر علي صفتـي وهويتي الوحيـدة، ظنها ميـزة... فِعْل بطولة، رغب أن يسلبني إياها، ظنني متمسك بها. ليته يستطيع أن يأخذ عني هذه اللعنة بلا مقابل، حتى لو لم يبق لي ما أتصف به.

كان في عبارتهم استخفافا بالحياة وبالحرية، كانت تسخيفا لأحلامي بالإفـراج طوال سبع سنين. فلو أصدّق قولهـم وأنا سجين لاستغنيت عن أحلامـي تلـك واخترت البقـاء في ذاك السجـن الصغـير، لأني اعتدته واعتدت كسله ولأنه حسبهم وحسب أدونيس أهون من خارجه.

كانت عبارتهم محبِطة: فطالما أنا مجبر على الخروج من السجن، كما أُجـبرت على دخولـه، فماذا يجب أن أفعـل الآن إذن... وما الطائل من بقيـة حياتـي إذا لم تكن سوى سجنا كبيرا فقط؟ يـا ضيعان أحلامي إن كان ما يقولوه صحيحا. وهل يعقل أن آسف على أيام السجن.

وربمـا بقولهـم أرادوا مواساتنـا. لكننا لم نكن بحاجـة للمواساة فقد واسينـا بعضنا، نحن معشـر المساجين، طوال تلك السنين، وما زلنا لهذا اليـوم نواسي بعضنـا، فنحن متخمين مواساة. حتـى أن السجانين كانوا

بعد أن يعتادونا كبشر يظهرون لنا الكثير من المواساة، لكن لا أحد غيرنا يستطيع مواساتنا. حاجتنا للطلقاء المهنئين كانت العون والمساعدة... أن يأخذوا يدنا برفق، ويصبروا على حبونا ريثما نتعلم الحياة ونكون أسوياء مثلهم، فلن نكون مصدر نفع أو متعة لهم ما لم نشفى من شروخ النفس وخيبة الحلم. لكن أخشى أن يكون البعض، من غير قصد، بمزاودته علينا كان يريد أن يعفي نفسه من مساعدتنا «فأظهر لنا عذره ولم يظهر بخله».

أستغرب حين يسألني البعض مستنكرا ادعائي عدم السوّية: وكيف يمكن أن تكون سويا؟ لا ينتبه سائلي أني أحتاج أن أكون سويا لأعرف الإجابة عن سؤال كهذا. ألم تكتئب، يا سائلي، أو تبتأس أو تفرح، لساعتين أو يومين، لسماعك أغنية أو مشاهدتك فيلما فشعرت أنك للحظة لست سويا... فكيف تطلب مني أن أكون سويا بعد كل قهر السجن ومبكياته؟ كيف تتوقعني سويا بعد أن تطوّعت، مرة، أن ينزل بسام العلي قربي في المهجع بعد أن أصيب بشيزوفرينيا حادّة حسب تقارير الأطباء، فلم يعد أحد يحتمله أو يحتمل شتائمه وبربرته ليل نهار، فاعتبرت نفسي أطول بالاً من غيري وأقدر على احتماله. بعد أيام قليلة ضربته مثل غيري، فقدت حِلمي وضربت إنسانا مريضا لا يستطيع التوقف عن بربرة لاإرادية، مثل مريض الربو الذي لا يستطيع إيقاف سعاله وحشرجته. كيف لي أن أكون سويا بعد أن ضربت إنسانا أعرف رقّته قبل السجن، لم يؤذني بشكل مباشر أو إرادي ولا يمكنه الدفاع عن نفسه ولا مهاجمة أحد. كيف سأعود سويا بعد أن عرفت أنه بعد أن أُطلق سراحه بسبب مرضه، الذي نهش جسده فأهزله وأحاله في هيئة شبح، ففعل مثل السجانين حين لم يحتملوا رأسه فحبسوه، ومثل رفاقه حين لم يحتملوا رأسه فنبذوه وسخروا منه وضربوه، صدّقهم بأن رأسه لا يُحتمل... رأسه طنّان... ففجره بطلقة من بندقية صيد وارتاح.

لا جواب عندي عن سؤال لماذا لم أنتحر أنا وأمثالي مع كل هذا العذاب،

فالطليــق ينتحر لأتفه من هذه الحالــة. ربما لأن الطليق يفتقد الأمل، أي أمل، ونحن يتلبسنا الأمل بالإفراج، ظنا منا أنه يحمل لنا أحلاما ترفرف قريبــة منا بأجنحة ثقيلــة تطالها أيدينا فنقبض عليهــا. وربما لا ينتحر السجــين لتساوي الموت وحاله في سجنه، فــلا يترجى اختلافا أو افتراقا عــن حاله السجينــة، كما الطليــق حين يذهــب إلى نحر نفســه متعشما بالانتقــال إلى كينونة أخــرى متخففا من حمل أسباب كربــه وكآبته. أما السجــين فثنائيــة الوجود عنده هــي السجن والحرية، فلــو تأكد أن موته يحملــه إلى الحريــة لما تردد لحظــة في الانتحار. فهــو لا يخاف الموت ولا يحسب له حساب، فقد لعب الكثير منا هناك عند حافة الموت. فذات مرة أهــدى نزار علبة علكة لنزيل زنزانــة. لم يكن ذلك كرما زائدا من نزار، مع أنه لطالمــا مد سجناء محتاجين بما يحتاجونه، والعلكة لم تكن حاجة لــذاك النزيــل. فالحكاية أننــا سمعنا سعــال هذا السجين لأيــام وليال، سعــالا سجنيا بدا وكأنه محملا بفتات روحــه وخثرات دمه. وباستيضاح أمــره عــبر قنواتنا السرية تأكد لنــا أنه معزول ليس عقابــا وليس بسبب التحقيــق، بــل لإصابته بسل قاتل...! لمعت فكــرة في أذهان أغلبنا، لكن نزار كان سباقا كعادته فأرسل له العلكة ليعلكها ويردها لنزار مليئة، قدر كرمه، بعصيات السل.

عادت العلكة بعد بعض الوقت ملفوفة بورقة نايلون نظيفة كان نزار قد أعطاهــا للمراسل وأوصاه ألا يلمسها بيديه أو يعرّضها لهواء السجن كي لا تتلوث.

لم يستوعــب السجــان المراســل حاجة نــزار لعلكة معلوكــة بفم نزيل زنزانة، ولا أستطيع أن أخمن ماذا خطر في باله حينها وكيف فسر الأمر لنفســه. تلقفها نزار منه وطرده ممازحا بــدل أن يجيبه على استفساره. جلــس قبالتنا لا يعطي فرحته لأحد، ينقّل نظره بيننا وضحكته ملأت كل وجهــه. بــدأ يفتح لفافة كنزه الثمين على مرأى مــن تساؤلاتنا التي بدأت تجــول في بالنــا: ألن يقــرف؟ كان القرف هو كل ما يثــير استهجاننا. لم

يلمسها نزار بأصابعه، رفعها مستعينا بورقة النايلون بكل مداراة ورماها في فمه وأطبق عليها. ماذا سيحدث لنزار، هل ستموت أمه؟ ألم نكن نقول في طفولتنا في حالات مشابهة: (من تم لتم بتموت الأم)! أم ستموت أم المسلول؟ لكن نحن كبارا الآن ولا علاقة للأمهات بعلكة حبلى بأسباب الموت. فنزار أراد أن يصاب بالعدوى لكي يقدم مبررا مرضيا للجنة أمنية أُنشِأت في تلك الفترة كانت مخولة بإطلاق سراح سجناء مرضى بأمراض قاتلة أو خطيرة، شرط ألا يكون السجين خطيرا بخطورة ذاك المسلول الذي سيترك ليموت في السجن حاملا سره وسله إلى القبر. وخطورة السجين هنا تعود لأسباب سجنه التي ستقدرها تلك اللجنة على هواها إن كانت خطيرة أم أقل خطورة.

أخذها نزار بين أسنانه فرحا بمرض سينهش صدره. دوّر العلكة على أسنانه ولسانه بمتعة وتلذذ كأنها حلمة نهد. كان ذلك تحت أنظارنا وبتواطئنا، ننتظر نجاحه باستقدام هذا الفرح إلى مهجعنا ينثره علينا من رئتيه حين تمتلئان سلا.

كان علينا الانتظار أياما ليتمكن المرض من نزار، مع علمنا أنه يحتاج لفترة طويلة حتى تظهر عليه علائم المرض، طامعين بفاعلية هذا المرض الحنون. وبقينا أياما وأسابيع ننتظر، ننتظر طلة سعلة نزار... ولم تأت. فكان إن تنحنح نلتفت إليه مستبشرين شرا به، وعندما تتبين لنا سلامته ندعو له: «اللّه يبليك بداء السل».

فشلنا بفشل نزار، إذ رفضت عصية السل أن تدخل جسده الجميل. ومع هذا فعلي لم يقبل بهذه النتيجة أو يرضخ لها مفوّتا وجود تلك اللجنة المكرمة. فأراد أن يأخذ فرصته طالما أن الأمر كله مجرد لعبة مع الموت وليس أكثر من ذلك، فأخذ كمية كبيرة من أحد أدويتني التي يحظر تناول أكثر من قرص واحد منها، فانثقبت معدته وصارت لا تصلح أن تكون أكثر من غربال... لكنه نجا من السجن.

أسفنـا في ذاك الوقت لعدم وجـود مرضى إيدز بيننـا، فبهذا المرض تكون اللعبة مضمونة النتائج.

هـل لإرادة الإنسـان دور كبـير أو مؤثر في التحكم بتكويـن شخصيته عندمـا يكـون سجينـا؟ أليـس الإنسـان بالعموم هـو صنيعـة الظروف والعوامـل والأشخاص المحيطين به، أي العوامل ذات الطبيعة البيولوجية والاجتماعية والنفسية. فكيف إذن للسجين أن تكون له حرية اختيار ردود أفعالـه أو أفعاله في مواجهة سجنه أو في مواجهة الأشخاص المحيطين به من سجانـين وسجناء على الشكل الذي تتطلبه أحـكام مسبقة. وإضافة إلى ذلـك فـإن أداء السجـين وأفعالـه تقاس بمقاييس الخـارج ويؤخذ عليه مـا يؤخذ على الطليـق. فالكذب، مثلا، الـذي احتاجت المجتمعات دهورا لتنبذه وتعتبره مخلا بأنظمتهـا ومنظوماتها، وأقرت العقوبة على الكذابـين في مؤسساتها مثل الأسرة والمدرسة، لمـاذا يكون سلوكا مشينا بالنسبة للسجناء، فما المانع أن يكون الكذب حلالا في السجن، وما الذي يسيء السجناء أو يضرهم إن أخبرهم أحدهم حكايات كاذبة عن حياته السابقـة، لماذا يعتبرون فعلـه نابيا ويسمونه كذاب، ومـاذا يضيرهم إن استيقظ أحدهم من نومه في الصباح وسرد لهم أحلاما مختلقة، أو غيره ادعى في المساء أنه كان يملك فيما مضى مقدرات وإمكانات يعرفون أنه لا يستطيعهـا، وثالث إن تحدث عن المستحيلات التي يدعي إمكانيته القيام بها بعد أن يخرج من السجن. فالماضي والمستقبل عند السجين ليسا أكثر من خيال يفبركه على هواه، انعكاسا لحالته النفسية وتعويضا عن العجز الـذي يملأه. وهما مهربه من حاضـره القرف والمرعب. مرعب كونه بلا نهاية، أو بلا نهاية معروفة ومؤكدة.

وحتى الجنس له نفس القيمة الأخلاقية والاجتماعية في السجن كما في الحياة. فالفعل الجنسي الذي استبدلته البشرية بالفعل التناسلي وقوننته وشرّعتـه مجتمعاتها على هذا المعنى أو القصد، وفرضت عقوبات دنيوية وآخروية عنفية على مـن يعتبره أو يمارسه بقصد المتعة، واعتبرته شاذا

عن الناموس الطبيعي أو الاجتماعي أو الإلهي. فيبقى الجنس على وضعه وحالـه هذه في السجن، وتحرّمه إدارة السجـون أو الأعراف السجنية أو التقييمـات الخارجية ما لم يكن بقصـد التناسل. ولاستحالة التناسل في السجـن، حتى لو توفرت الدايات والمياه الساخنـة والمطهّرون، إذ لا أحد سيقبـل على نفسـه، رجلا كان أم امـرأة أم بين بين، تحمـل إثم إنجاب مخلوق في عذابات السجن سيصعب عليهم اعتباره إنسانا أم كائنا آخر، إذ شـرط الإنسـان أن يولد حرا ومساويا لغيره كسـن من أسنان المشط. فمـاذا لو كانـت المورّثات تتغير في السجن وتأتـي بمولود مع طميشة على عينيه وكلبشات في يديه ودولاب معلق على مؤخرته.

كنـا نجهد أنفسنـا بالانتباه لـكل شـاردة وواردة تمر بنـا في السجن ونحاول أن نحفظها لنرويها لكم حين نخرج إليكم، إذ من غير اللائق أن نهجركـم كل هذه المدة ولا نأتيكم بخبريات تدهشكم وتستغربون حدوثها فنتمكـن منكم ونجعلكم أسرى لحكاياتنا، وبهـذا يمكننا أن نبقيكم إلى جوارنا تؤنسون حياتنا لكي لا نحنّ للسجن.

كانـت تلك المراقبـة تعزينا وتسلينـا إذ كنا ننظر لـكل العذابات التي نعيشهـا ليس كما تحدث بل كما يمكننـا أن نرويها، فنحولها من لحظتها إلى حكاية وإن لم تكن حكاية بل ذلا. كنا نرتبها حاضرة في ذاكرتنا لتكون جاهـزة للحكـي والروي بعد الإفراج الذي كنا نحلـم به يوميا ونتوقعه في كل لحظة. واللحظة في السجن ليست هي نفسها التي تعرفونها وتقيسون بهـا حركتكم وحركة الوجـود حولكم. فلحظة السجن قـد تكون شهرا أو دهرا.

هـذا الأمر يخص حصـرا السجنـاء اليساريين الذين خـبروا سجنا غير الـذي خبره اليمينيون ولو كانوا في نفس السجن. فلا بد أن الإخوان المسلمين كانوا يتعاملون مع الموضوع بشكل معاكس تماما، فإذ هم واثقون أنهم لن يجرؤوا على البوح بما رأوه في السجن من هول ما رأوه ومن خشية

إن حكوا عنه أن يعادوا إليه عقابا. فكان همهم أن يحولوا دون أن تحتفظ ذاكرتهم بمشاهد وصور عذاباتهم خشية أن يدخل ذاكرتهم سجان فضولي يبحث عن ملقط شعر ينتف به شعر وجنتيه لكي لا يطاله النعاس في نوبة حراسته فيرى تلك الصور محفوظة فيها فيعاقبهم بالفسخ أو بتكسير الأضلع السائبة متهمهم بالاحتفاظ بها قصدا.

أغلب نقاشاتنا كانت عن موعد الإفراج، وكأنه كان يتوقف على قوة حجتنا على ضرورته في لحظة أو بأخرى. فكان يحاول بعضنا، وهذا البعض هو أي واحد فينا إذ كنا نتناوب على هذا الموقع من دون ترتيب أو ناظم، كان يحاول هذا البعض إقناع الآخرين بأن الإفراج قريب، وكان يقوم بذلك بجد واجتهاد وحماس، كما لو أنه يريد من يآزره وينضم إلى قناعاته، وكأنه إذا حقق أكثرية سيكون له الأمر. أو ربما كان يخاف إن أخفق أن يخيب أمله لوحده. وأحيانا يتشكل عند البعض، ذاك البعض أو غيره، ما يشبه اليقين بموعد حدده بنفسه أو أهدي له في الزيارة، وعندما يأتي يومه الموعود ويمر كسابقه ولاحقه ينهار منكسرا، ويزيد عليه همه تهكم البعض عليه وعلى توقعاته الخائبة، لكن لا يخلو الحال من آخرين يواسونه ويعشمونه بيوم بديل من صنع سجين آخر أو بزيارة أخرى.

لم يكن أبو عزيز بحاجة لتوقع يوم الإفراج أو قبول توقعات الغير فقد كان يتعامل مع السجن بشكل مختلف عن الآخرين. كان يستيقظ باكرا جدا قبل أن تُفتح الأبواب. يوقظني بعد أن يسخّن إبريق ماء لشرب المتة، أنهض نصف جالس فلم أكتف بساعات النوم القليلة بعد سهري المتأخر دوما. لو غير أبو عزيز أيقظني لسبب أهم من هذا بكثير ربما سأتشاجر معه، أما هو فلا يمكن أن أرد له طلبا مهما كان بسيطا وغير مهم، لأن لديه من الشهامة ما يكفيه أن يمنّ علينا جميعا بخدماته ومؤانساته التي لا تتوقف ولا تنته. كان أحب الشباب إلى قلوب الكثيرين، خاصة المنبطحين

أو المندلقـين حسب تعابـيره. كان أطيبنا وأكثرنـا إخلاصا وودا. نموذج للإنسان الحر، لم يستسغ أي شيء في السجن ولم يقل كلمة طيبة واحدة بحقه كما قلنا جميعا. كل ما يفعله في السجن هو لتمضية اللحظات ريثما يصل نداء الإفراج. فحتى القراءة، لهّاية السجين، لم تستهويه، رغم أنه إن مسك كتابا، أحيانا، لا يتركه لينهيه. لا يحب القراءة سجينا ولا يحب أي شـيء وهو سجين. يريـد أن يفعل الأشياء بإرادتـه، وهذه شرطها أن يكون خارج السجن، فهناك سيفعـل أي شيء يختاره، وسينجزه بإصرار ومتعـة لا يعرفهـا إلا الأحرار، مثلما استطاع أن يشـق طريقا لبيته بيديه ومعولـه في سفح الجبل الصخـري، بُعيد أن خرج مـن السجن. استغرق معـه هذا الطريق أياما وأشهرا، لكنه أنجـزه. يمكن لأبي عزيز أن يفعل أي شيء شرط أن يختاره، فينال متعته.

أشـرب معه المتة وندردش، غالبا، حـول خروجنا من السجن. في هذا الوقـت المبكّر لا يمكن لحديث أن يحضرنا سـوى أحلام يقظتنا نتشارك بهـا. نبقى هكذا حتى تنفتـح الأبواب، ليبدأ هو يومـه ولأتابع نومي. كان ينهض باكرا، دومـا، ويغتسل ويشرب المتة ويفطـر ليكون جاهزا للحظة الإفـراج: عاش دوما لحظة ما قبل الخـروج... كل سنين سجنه عاشها وكأنـه يسمـع تـلاوة قائمـة أسمـاء المُفـرج عنهـم منتظـرا دوره، وكل الأفعـال التـي يقوم بها في النهار هـي تزجية الوقت ريثمـا يسمع اسمه. كان ينظـف أدواته فور انتهائه منهـا، ليكون جاهزا لحظة الرحيل، لا أن يكون منشغلا بالجلي. أو ربما اشترطوا للإفراج، في آخر لحظة، أن تكون أدوات المحبوس نظيفة. حسب تصوره أن أمر الإفراج سيأتي في الصباح مـع فتح الأبواب، وصدقتْ نبوءته، لهذا يصحو باكرا وينجز يقظته كي لا يتخبّـط ويرتبك لحظتها، لدرجة أنه تخفف مـن الكراكيب التي يجمعها السجنـاء ليكون خفيف الحِمل لحظة الإفراج. فلم يكن يملك سوى بعض الأشيـاء القليلة المرتبـة بشنطة من نوع سَكٍ صغـير مفتوح يضعها غالبا عنـد قدميه قرب شحاطته، ليسهل عليـه لبس الشحاطة وتناول الشنطة

عندمــا سيهرع تنفيذا لأمر الإخلاء خوفا إن تأخر ثانية أن يغلقوا الباب، لأي سبب، وتفوته فرصة الحياة.

لم يهتم أبو عزيز يوما بكل سياسات العالم، لا قبل السجن ولا فيه. جاء من أسرة فقيرة باتت ليالٍ دون عشاء حين لا يجد أبوه، الذي كان متوفيا عندمــا عرفت أبــو عزيز، عمــلا في ذاك اليوم. فأبــوه كان يعمل حجارا ينقر الصخر بأدوات حادة ليصنع منها حجارة جاهزة للبناء، ولقد علّم ابنه، حين كان يعمل معه، أنه إن أغمض عينيه وهو ينقر الحجر خوفا من شظيــة تدخل فيهما فلن يصنع حجرا جيدا. لهــذا بقيت عينيّ أبو عزيز لا تــرّف عن ترقّب الحرية، أراد أن يصنعها على هواه دون أن يغفل عنها لحظــة واحدة، أراد أن يرى نقرة الإزميل حــين تحفر على صخرة حياته كلمة الحرية.

عندما اشتغل أخوه الأصغر اشترى لأبي عزيز بيجاما رياضية رخيصة من أول راتب يتقاضاه. طار أبو عزيز فيها فرحا غاصا بدمعة قاهرة من طــول سنين السجن التي جعلت أخوه الصغير يصرف عليه بدل أن يكون العكســ. بعــد عدة أيام غافلني أبو عزيز، وأنا نائــم، وقطع أساور أكمام البيجامــا، فلم يعد يستطيع احتمــال حبسها لمعصميه. كنا تجادلنا لأيام عــن ضيقه من هــذه الأساور ورفضي فكرة قطعهمــا بسبب رمزية هدية أخيه، لكن أبو عزيز لا يحتمل حبس معصميه. فهل يمكن أن نعود أنا وأبو عزيز أسوياء بعد كل براميل المتة التي شربناها قهرا في السجن.

إن تصرفنا مثلكم لا يعني أننا أسوياء. لا، فنحن نفترض أنكم أسوياء فنقلدكم لا أكثر، نحن لسنا نحن بل أنتم، أو أشباهكم. لو كانوا يسمحون لنا بكاميرا فيديو في السجن لاستعرت واحدة من أحدكم ورجعت مسرعا بالزمــن إلى الخلف وصوّرت لكم عينيّ أديب في يومين متتالين منفصلين لكــي تصدّقــوا، لأنكم ما عــدتم تصدقون إلا ما ترونــه في أفلام الفيديو فتقتنعــون أنــه ليســ في الواقع جميــلات إلا جميلات الفيديــو كليب، ولا

وجـود للحقائق إلا ما يأتيكم عبر تصريحـات وخُطبات أسامة بن لادن. لـو كان يمكن ذلك لكنتم فهمتم ما أقـول وصدقتوه، وكنت استغنيت عن شـرح الأمر، وما كنت حكيت لكم حكاية أديـب عندما جاء يسألني، فور عودته من استدعاء طارئ من رئيس الفرع: هل أبكي أم أفرح؟ سألته: ما بـك، ماذا حدث، ماذا أراد منك؟ أجابني: والدتي ماتت... و... أخلوا سبيلـي. كان يومهـا ٢١ آذار عيـد الأمهات. ماذا سأجيـب هذا المخلوق! لم يكـن أديـب يومها أكثر من مخلوق. ومن أنا يـا أديب حتى أجيبك عن أصعب سؤال يمر في حياتي؟ قلت له أسرع في الخروج وستجد أن الجواب ينتظرك هناك في الخارج. أريد أن أودّع الشباب، أجابني. دفعته: اذهب وعد غـدا لتودعنا. كان يمكن أن يعود فهو مـن فئة المدعومين، وإلا كيف يحظى مثله بإخلاء سبيل فردي.

عـاد في اليوم التالي فعلا، عاد شخصا آخـر أوشكت ألا أعرفه، ليس لأنـه يلبس ملابس تدل على سوّيتـه الاجتماعية لم يكن يرتدي مثلها وهو سجـين، بل لهيئته التي تبدّلـت كليا، لدرجة جلست علـى يطئي أحتضن ركبتيّ صامتا لا أسمع من كلامه إلا نبرة صوته، ولم أر فيه إلا عينيه. كنت أسمـع صوته هـذا لأول مرة، كأنه جاء به من خزانـة ملابسه اكسسوارا مـع هذه البدلـة تحديدا، وربمـا لديه العديـد من الأصـوات غيره بعدد بدلاتـه. امتثل من يخاطبهـم لرنة صوته الجديدة: مازحـوه بأدب، على غير طبيعتهـم، وحدثوه باحترام. خاطبهم، على غير ما عرفناه سجينا، كأرستقراطـي محترم مفطور علـى آداب الحديث واحترام مَن هم أدنى منه مكانة اجتماعية بأخلاق متديّن بإسلام سمح.

لا يمكـن أن أنسى يوم أدخلـوه إلى مهجعنا في أحـد المساءات يرافقه سجان لطيف يتقدم موقوفَين من السخرة (سجناء بتهم تافهة يفرضون عليهـم تنظيف السجن ويسموهم سخـرة أو بلدية في غير هذا السجن) يحملـون بطانيـات ضيفنا الذي بدا مـن هذا الإجراء أنـه مدعوم جدا، فغيره يحمل بطانياته بنفسه.

دخـل أديب دون أن يرمي السـلام ودون أن ينظر إلينا أو للمكان الذي دخلـه لأول مـرة، هكذا بـدا لنا. عرفت فيمـا بعد أنه لم يكـن يعرف أن هـذا المهجع للمدعومين فقط، وأن أهله كان لهم وضعا مهما جدا، وأنهم فعلـوا المستحيل، أو دفعوا الثمين، ليتمكنوا من إحضاره إلى هنا. لم أنتبه إلى مـاذا كان يلبس، فلباس القادمين من سجـن تدمر متشابه: قميص داخلي أبيض، أو كان أبيض يوما ما، وبنطال بيجاما خفيف القماش فاتح اللـون ربمـا ليتناسب مع «التيشـرت»، ولم أنتبـه إن كان حليق الحواجب كحال رأسه وذقنه وشنبه، مثل كل التدمريين، لأنه كان يميل للّون الأشقر وجلـده لم يـر الشمس، ربما، منذ اعتقل. ربما لم ألمـح حواجبه ولم أنتبه لتحيتـه لأن أحدا منا لم ير وجهه الذي يتدلى حتى يكاد يلتصق بصدره، وربما يلتصـق. فرقبته استطالت بانحناء شديـد، كحال كل التدمريين، حـين تمضـي عليهم سنين لا يحق لهـم رفع الرأس في أي ظرف كان، لا أثنـاء الحلاقة ولا أثناء الحمام ولا أثناء الألم، وبالتأكيد ولا أثناء الموت. كـوّم السخرة حملهـم عند مدخل المهجع وخرجوا مـع السجان اللطيف. اعتـبر أديب، على ما يبـدو أن المكان الذي رميت بـه بطانياته هو مكانه المحدد، وأن الوضعية التي وضعوا عليها هي قسمته في هذا المهجع حسب قدره المكتوب، فجلس هناك، عليهم.

لم يعرف نزلاء مهجعي مثل هذا السلوك من قبل. فلم يتحرك أحد منا لاستقباله، فنحن هنا مدعومين ولا نرحب بأي مدعوم وافد إلينا سيأخذ منـا مساحـة تضيّق علينا المـكان حسب مـا اعتدناه. لكـن بعد لحظات قليلـة جدا بـادره أحدنا يسأله اسمه وتهمته، لم يُجـب. كرر آخر السؤال ودعـاه للجلوس بيننا، لم يُجب. سؤال آخر وطلبٌ آخر، وأديب لا يكش ولا ينش. ألهذا الحد هذا المدعوم مغرور! ويرفض متكبرا دعوتنا وضيافتنا ورفقتنـا! لكن هذا النحـول الشديد، وشحوب الموت الـذي يعلو وجه هذا الكائـن لا ينمّ عن غرور... ولا حتـى عن إحساس بالذات، بل هي سنين سجـن تدمر حولته حطاما فلا يتجرأ أن يقبل دعوة أناس مليئين بالشعر

والثيــاب... فربما هذا هو مقلب الموت الــذي ينتظره... وما إن ينهض إلى هــؤلاء المتمظهرين بشكل البشر حتى ينقضوا عليه شياطين ينهشون جلده وعظامه بأسنانهم الصفراء.

لم يتأخر هــذا الاستنتاج عن أذهاننا سوى لحظات قليلة، ليبادر أكثر من واحد منا إليه يرحبون به ويطمئنوه بشكل أو بآخر أنه بأمان بيننا، لكن هذه الطمأنينة كانت مستحيلة. عرف من دنا منه لحد الالتصاق أن أديب كان يــرد علــى كل سؤال، وأنه من المؤكد ألقى علينــا تحية مسالمة عندما دخــل. لكن ما كان يمكن لغــير لصيقه أن يسمعه، كحــال كل التدمريين الممنوعــين لسنوات من استخــدام حناجرهم وحبالهــم الصوتية، فليس مسمــوح لهم سوى الومى، ومــن خلف ظهر السجان يمكــن للشجعان أن يهمسوا أو يفحّوا.

نجحنا خلال سنة أو سنتين، قضاها أديب بيننا، أن نجعله يرفع صوته ليسمعــه مــن يبعد عنــه مترين أو ثلاثــة، ونجحنا بجعلــه يبتسم ويطلق شاربيه، لكنا فشلنا أن نُضحكه أو نجعله يصرخ أو يغضب أو... يطمئن. كان يحتاج لأكثر من كلامنا ومساعينا، ولأكثر من كلام أهله وابنته التي ولــدت بعــد اعتقاله، بــل حتى لم يطمئنــه كلام الضبــاط المسؤولين عنا مــن أنه لن يعود إلى تدمــر ويتلاقى مع الموت مرارا هنــاك كل يوم. كان بحاجــة للخروج من السجن لينطلق صراخه ولتنفلت ضحكته تُعيد روحه المرحة الطيبة، وأنا متأكــد أنه بحاجة ليهجر سوريا لتعود له الطمأنينة. أنــا واثــق مما أقول بعد أن عرفت، أنا فقط، سبــب عدم كشفه كتفيه ولا مــرة أمام الآخرين. عرفت ذلــك عندما احتاج مضطــرا أن أدلك كتفه المتشنــج، مشترطــا أن أدلكه من فــوق القميص، ومع ذلــك لامست تلك الندبــة الكبيرة على كتفه، وسألته: أهذه هــي السبب؟ هز رأسه المسنود علــى الأرض تأكيدا. سألته ومــا المشكلة إن عرفنا بهــا، فأنا عندي أكثر من واحدة صغيرة منتشرات على كل جلدي ألامسهم وأداعبهم دوما. لم يُجــب. سألته السبب، قال لا يمكن لأحــد حتى زوجتي أن تعرف قصتها.

صمــتُّ جَفِلاً عندما سمعت جملته الأخيرة القادمة من أعماق رعبه، ولم آت على ذكرها معه مرةً أخرى.

عندمــا رأيــت عينيــه خــلال زيارته لنــا عرفــت الفرق بــين السجين والطليــق... لماذا عدت يا أديــب ألتقهرني بعينيك الحرتين. أسفت على وجــودي سجينا... أردت لعينــيّ بريقا يلفت انتباه محدثــي أو سامعي. وددت أن تعود الحياة لهما، لا أن يكونا فقط مجرد أداةٍ لا نفع كبير لهما في السجــن. فإن كانا لمجرد معرفة الطريق إلى الحمام أو للسير في ممر الجناح الخالي من الأغراض والدرجات والحفر والمطبّات الاصطناعية، ولعــدم وجــود السيارات والطنابــر أو صبايا جميلات ممــدات في لباس البحر على أطــراف المهاجع فمن السهل الاستغنــاء عنهما، فليس أسهل من حفظ طريقة ســير آمنة بمساحة ضيقة صغيرة غير عَثِرة. لهذا كان النــاس يستغربــون عيوني ونظراتي بعيــد خروجي من السجــن ويشكون منها، ويطلب مني بعضهم أن أشيحها عنه ليتمكن من الكلام والتصرف بطلاقة.

لم تكــن نظراتــي وقحة كمــا تتصــورون، ولا شكاكــة فيمــا تقولون أو تفعلــون. وإن كانت تعرّيكم فليس من لباسكــم بل من أي غشاواة تحجب روحكــم عني... كانت تفتش عــن الحرية داخلكم. كانــت عيوني لهوفة دهِشــة لا ترمش حرصا مــن أن يفوتني خلال زمن الرمشة، الطويل جدا في تلــك الأيــام، حرفا أو نأمــةً منكم تدلني أو ترشــدني إلى حريتي التي فقدتهــا في سبع سنــين رمشتُ وأغمضت عينيّ خلالهــا ما يكفيها لتبقى مفتوحة العمر كله. كانت نظراتي تكتشف نفسها من جديد، وتتعرف على إمكاناتهــا المنسية من جديد، فالرؤية ليست عــادة لا نفقدها مثل ركوب الدراجــة أو ممارســة الجنس. الرؤيــة إمكانية وفعل حيــاة دائم، الرؤية تواصــل، والتواصل خبرة وذكاء وليس عادة. فالإنسان رؤية أداتها العين، وما باقي الجسد ليس غير زخارف جمالية لإمتاع العيون الأخرى.

كان السجانــون بشرا مــن بلادي، لا يميزهم عــن آخرين عرفتهم في حياتــي قبل السجــن شيئا. وصدف معنا أكثر من مــرة أن يكون السجان شقيــق سجين، أو ابن عمه أو زميله أو صديقه. فليس السجان والسجين، في بــلادي، مخلوقــين مختلفــين ولا همــا من عالمــين متباينــين. فغالبية السجانــين غير المسؤولين جاؤوا بهم إلى السجن بشكل اعتباطي من دون اشتراط ما يميزهم عن أخوتهم أو أبناء عمومتهم أو أقرانهم. إنهم هنا لتأديــة خدمتهم الإلزامية التي نسميها، إكبارا لها، خدمة العلم. فعندما تفرزهــم السلطــات إلى السجــون ليكونــوا حراسها لا تقصــد من ذلك حرمانهــم من خدمة الوطن أو العلــم، أو إيثار أخوتهم أو أبناء عمومتهم عليهم حين ترسلهم هؤلاء إلى الجبهة الخارجية، فهي تعتبر أنها تنصف أولئــك وتعتبرهم يحظون هم أيضــا بخدمة الوطن من خلال الدفاع عن جبهتــه الداخليــة. لكن أسياد هــؤلاء المسؤولــين يعرفون حقيقــة الأمر، وأن تحويــل هــؤلاء السوريين إلى سجانــين هو دفاعا عــن جبهة السلطة الخارجيــة. وبالنتيجة فإن قسمة هؤلاء الصبية والشبان الاعتباطية هذه قــد تودي بأحــد الأخوين سجينا والآخر سجانــه، وربما بمصادفة قسمة أخرى يتبادلون المواقع.

لفــت انتباهي، مرة، سجان جديد لا يبدو عليه أنه تجاوز الثامنة عشر من عمره. أنا لا أنتبه كثيرا للسجانين، لأني لا أجيد إقامة علاقات جيدة معهــم، ليســ لأنهم سجانــون بل لأني أفتقــد مهارة التعــارف والتواصل السهــل بالغير. كان هذا الشاب خائفا خجولا وجلا لم أره لوحده ولا مرة في الفــترة الأولى، كان دومــا برفقة من هم أقدم منــه... معلّميه. وبدا عليه أنه يخاف السجناء إن فتح لأحدهم باب زنزانته، ففي حياته المدنية لم يــر سجنــاء إلا في التلفزيون، وكانوا غالبا مرعبــين. أو أنه يخاف من فكرة السجن أساسا، فيخاف ممن يتلبسها سجينا.

بعد فــترة كانت مناوبته ليليّــة، وكان السجن هادئــا، وكان مجبرا أن يكــون لوحده في الجنــاح، فالوقت متأخر والمعلّمين ذهبــوا ليناموا. نادى

علــى أحد السجناء السخــرة وطلب منه القيام بعمــل، وبعد برهة اعتبر أن السخــرة لم ينفذ عمله بالشكل المطلــوب مفتعلا حجة كي يعاقب هذا السجــين. فصفعه على وجهه صفعة خفيفة لم تكن كافية لهش ذبابة عن وجــه السجين... لو وجدتْ فعــلا، وكرر ذلك مرتــين أو ثلاثة. ضحكت في ســري متألمــا آسفا عليــه لمعرفتي إلى أين سيؤول بــه الأمر. فبعد أيام صار صوتــه الحاد يملأ الجناح، ولا يترك الكرباج من يده يضرب به كل سجــين يمر به من دون أي سبب، فــإن لم يجد سجينا يضرب الحيطان. حزنــت على هذا الصبــي الذي بكته أمــه، مثل كل الأمهــات السوريات، يــوم فارقهــا لأول مرة في حياتــه ليخدم الوطن: ليحميهــا ويحمي أخوته وأبنــاء قريته مــن ضيم وشر يتربص بهم مــن ذاك الغريب وراء البحار أو وراء الجــولان... أو وراء البقاع. ستنتظره أمه طوال سنين عسكريته، يومــا بيوم، داعية عودة صبيها بخير وسلامــة. وهي تعتبر، كما كلنا، أن هــذه الخير والسلامة هي ألا يموت أو يفقــد عضوا من أعضائه. لكن أن يتحــول إلى جــلاد صغير أو فرخ سفاح فهذا لا يدخــل في حسباننا ولا في حسابــات أمه ضمن جردة الخير والسلامة. فالإصابة النفسية، بفهمنا، هــي خارج دائرة العافيــة. لهذا يعتبرنا الطلقاء، نحــن معشر السجناء، طالمــا أنه لم ينقصنا عضو من أعضائنا في السجن أننا أسوياء. ولا يهتم أغلب مثقفينا «الثوريين» عندما يحرضون الشباب على منازلة السلطات و«الأعــداء»... حجم الضرر الذي يتسببون بــه لهؤلاء الشباب والصبية في بنــى شخصياتهم، أولا، بما يقدمونه لهــم من فهم حربجي أو عنفي، ولا يهتمــون، ثانيــا، لما سيصيبهــم إن حصلــت المنازلة ووقعــت الواقعة وسقط هــؤلاء الشباب بين أيدي صِبيةٍ كذاك الصبي الذي لم يرتكب أي ذنب ليكون جلادا، سوى أنه شاب سوري مجبر على خدمة الوطن... أو السلطة.

جاءنــا بعضــ هؤلاء المثقفين، الذيــن مازالوا يحرضــون صِبية الوطن ليكونــوا سجناء أو سجانين، لزيارتنــا بعيد خروجنا من السجن. ما فعله

هـؤلاء كان زيـارة ودية (هكذا يسمونهـا) أو لدعوتنا لغـداء أو لعشاء أو لشـرب سائل مـا ـ في مقاهي ونوادي المثقفين. ولا يظـنن أحد أنهم قدموا ذلك مكافـأة لنا، بل ثمنـا لفرجتهم علينا أو لعرضنا علـى أصدقائهم، وخاصة صاحباتهـم، على أننا أشياء تخصهم مثـل لوحاتهم ومقالاتهم وإبداعاتهـم... يعتبرونـا أحـدى إنجازاتهم. كأني كنـت بحاجة منهم لكوب بيرة!!!؟

هـل رآهم أحدكم كيف يجلسون معنا أو بالأصح كيف يُجلِسونا معهم، فهـم أصحاب الدعـوة. كان الواحد منهم يغوص في كرسيه مادا ساقيه علـى طولهمـا مقربا صاحبتـه إليه على يمينيـه أو على يسـاره، لا فرق، ويرمينـي على أحـد أطراف الطاولـة منكمشا على نفسـي مهما حاولت تمثيل الاسترخاء. يسألني سؤالا أو سؤالين عن السجن أو ما بعد السجن أو عن أي شيء، ولا ينتظر جوابي ليبدأ هو من عبارتهم المعهودة أنه كان داخل سجن كبير، مسترسلا بعرض نجاحاته وبطولاته ليس لي، فهو يرى في عيوني سخريتي منه، بل لصاحبته. من يسمعه يتحدث بهذا الحماس ينشـرح صدره أملا، لكن كل ما يفعله هـو حسب، زياد الرحباني، يبلفها ويبلفني ليضاجعها ويزبلنـي. لا تبتأسي يا امرأة فأنا وأنت، يا صاحبته، ضحيتيـه، جمهوره المأخوذ، متفرجيه، تسليتـه. هذا حقه علينا طالما هو صاحب الدعوة وصاحب الحظوة وصاحب النفوذ وأملنا في العمل ورجاؤنا في السلامة، كلانا يحتاجه، نتعشم فيه حريتنا.

غبيين أنا وأنت يا صاحبته، خذلنا غيره أكثر من مرة، بل دوما، بنفس الخطاب والشعارات وذات الحماس، ونحن لا نتعظ... كم نحن مساكين يا صاحبته. أنا اتعظت لكن بعد حين ومين، بعد أن ذليت نفسي له ولأمثاله باحثـا عـن عمل راجيا أن أحقـق وجودا كريما عـبره. كان يسألني أنا أو غـيري، هو أو غيره، بعـد أكثر من سنة على خروجنا مـن السجن: ماذا تعمـل الآن؟ عملي الوحيد هو بحثي عن عمل. فيتأثر جدا لحالي وأمثالي ويلعـن البلد والوطـن والعروبة. نفترق ليركب سيارتـه ذاهبا إلى مطعم

يفش خلقه فيه، فيشـرب زجاجة ويسكي مقهورا على حالي ليفرط حاله بعدهــا، فيحتاج إلى سيدة يأخذها إلى شقــة السفاد التي لا يملك ثمنها فاضطـر إلى استئجارها مفروشة في حي التجارة أو المزة أو مشروع دمر وربمــا في الحجر الأسود، فهذا حسب التيســير. أؤنب نفسي لهذا الذنب الــذي ارتكبته في حقــه وفي كل مرة أقــول لن أشكو لــه، ولأشباهه حالي البائسة مرة ثانية كي لا ينجلطوا قهرا على حالي.

اعتقــدت أن العمــل هــو السبيل الوحيــد لخروجي من صفــة السجين السابق التي لم أكن غيرها في ذاك الوقت، ولوقت طويل. كنت أمقت هذه الصفــة التي تلازمني كل ساعات يومي، ومــا زالت تلازمني لليوم، لأني لم أكــن اختلطت بعد بغــير الناس الذين يعرفوني سابقــا. لذلك شعرت بمتعــة المغامرة حين طلبت من صديقي زكي أن يبتعد قليلا عني ويتركني أجــرب شراء باكيت دخــان بنفسي. أردت أن أجــرب إمكانيتي بالتعامل مــع الغرباء، وأردت أن أرى عينيّ البائع وهــو ينظر إلي، إن كانت نظرته كنظــرة الآخرين لي، أم أنه سينظر إلي كما ينظر لبقية خلق اللّه. أردت أن أتأكد إن كان شكل السجين غيره شكل الطليق.

لم أعرّف أحدا علي أنني سجين سابق ما لم تكن ضرورة لذلك، فصفة السجين السابق كانت تسبب لي حرجا شديدا. كنت أريد أن أتصف بشيء أنا صانعه، أردت صفة الفاعل أو اسمه أو صفته لا المفعول به أو فيه. لهذا كنــت لهوفا للحصول على أي عمل يوسمني وأخــرج للناس به. كأن أكون فراناً، وأنا كذلــك الآن، رغم ما يبديه مقربيّ استهجانا لذلك، لكنهم لا يعرفون فخري بأن أكون فرانا ولست سجينا.

لكن صفة السجين السابق تبقى أقوى من صفة الفران رغم نيرانيتها، فهذه تزول بزوال المهنة أو بطغيان غيرها، أكثر سموا منها، عليها كصفتي كاتبا. وحتى هذه لا تصمد أمام صفة السجين السابق التي تحرص أجهزة المخابرات على إبقائها ملازمة لأمثالي طالما أنا خارج السجن وطالما هم

مخابـرات يسعـون لإبقاء سبـب لعملهم الخـزيّ، وليستمتعـوا بممارسة لؤمهـم الـذي استمرأوه مـن طول مـدة سطوتهم. فلا يتركـون قريبا أو جـارا، حيـا أو مدينة، جدة أو طليقة، إلا ويستمـرون بالسؤال عنا. لتأتي تلـك المدينة أو ذاك الجـار الذي عرف لتوه صفتـي الدائمة لأربعة عشر عامـا يسألني: ألست نادما على سجنـك؟ فأجيبه حسب الهوى. ودخلك مـاذا استفـدت من نضالك، أمـا كان الأفضل لك لـو... أو... أو...، فأتركـه يعظني ويُأستذ عليّ إن كان زبونا سيشتري كمية فطائر محترمة منـي، أو أجلده بمحاضـرة لن تقنعه مهما طالـت إن كان مجرد جار، أو غريب، أو عابر فرن.

لم تقتصر حاجتي، وأمثالي، للعمل على اكتساب الصفة أو التوصيف، بـل كنا كباقي بنـي البشر نحتاج لدخل مالي نعيش منـه أو به. فأعمارنا التـي زادت ونحـن في السجن لم تعـد تسمح لنا أن نأخـذ مصروفنا من ذوينـا، وكان ذلك سببا لتخلي الكثير منا مثلـي ومنصور ووائل وآخرين عن متابعة دراسته من حيث توقفتْ يوم اعتقاله.

قلت لنفسي ذات مرة: لربما أصدقاؤك المثقفون الثوريون التحريضيون يُحرَجـون إن عرضوا عليك عملا عندهم أو عند أمثالهم، أو ربما يظنون أني متطلّب كبير لا أقبل بعد كل سنوات «العمل السياسي النضالي» بأقل من مرتبة زعيم أو وزير أو مدير عام أو رئيس مهجع، وهذا خارج طاقتهم. وتبين أني كنت مخطئا بهذا الظن حين وضّحت لهم الصورة بأني بحاجة ماسـة لأي عمل، فيسألنـي واحدهم: ما الأعمال التـي تجيدها؟ أجيبه: أن أكـون سجينـا... إنها حرفتـي الوحيدة التي أتقنها. مـاذا تتوقع من سجـين لسنوات أن يتقن من أعمال! لقد فقـد كل مهاراته السابقة. لكن حاجته الماسة للعمل ومقدراته الذاتية تؤهلانه لإتقان الكثير من الأعمال في وقت قصير. فيسألني منتصـرا بإجابتي التي تأخذه إلى إعفاء نفسه مـن تبعتي: وما الأجر الـذي تتوقع أن تقبضه؟ فأعرض رقما يستهجنه ويستكثره، أتنازل عنه وكأننا في بازار، حتى أرسو على مبلغ الثلاثة آلاف

لـيرة الذي لن يكفيني لشيء. فيعـد: سأحاول! ويقطع منتقلا إلى حديث مختلف ومع ذلك لم أهوّن الأمر عليهم على ما يبدو، لأنني لم أجد عندهم أو بواسطتهـم عملا، رغم أني أعـرف أكواما من الثوريين القادرين على تشغيلي وتشغيل أمثالي الذين لا يتجاوز عددنا في كل سوريا بضع عشرات في تلـك السنــة (بعدها صرنا آلافــا إذ كرّت سبحــة الإفراجات ولم تنته لــلآن). بل الأنكى من هــذا أن بعض هؤلاء الثوريــين والإنسانيين الذين يمضــون نهاراتهم ومساءاتهم، شبه مقيمــين، في فنادق ومطاعم دمشق الفخمة اعتــبر نجاحه في عمله في مقابل إخفاقنا في الحصول على عمل تميّزا له علينا... وفوزا له ومرجلة... يا لضعفه وعجزه.

ومــن وفِّق منا بتأمين عمل أو مصــدر رزق فقد حصّل ذلك عن طريق مساعدات من عائلته أو عشيرته. إضافة إلى قلة معدودة صادفت ضمن أوساطهــا الاجتماعية قلــة أقل منها من المثقفــين الأوادم (غير ثوريين) قدمــوا لهم فرصة عمل طيبة استطاعوا أن يثبتــوا من خلالها أنهم أهل ثقــة وأصحــاب مواهب. لكن ومــع الأسف فما زال بعضنــا للآن من دون عمل ثابت أو دائم، أو بعمل لا يعود عليه بأكثر من خمسة آلاف ليرة، رغم أنه متزوج ومنجب، علــى اعتبار أن الزواج والإنجاب أقل حقوقنا ومتعنا الحلال في الدنيا.

كانــت تلك الأيــام قاسية، حاولــت المستحيل لأثبت لنفســي أني طليق وبالتــالي أنــا أخيَر منــي سجينــا، وأنه يجــب ألا أحتاج الحيــاة بمقدار حاجتهــا هي لي... ويمكنني فعل مــا لا أستطيعه وأنا سجين. خفت على نفســي خلالهــا من شطــط لا يحميني منه مديــح النــاس: لم يؤثر فيك السجن، فأنت أنت، مخاطرا، جريئا، عاشقا، غاضبا...، حيا. لكن هل هــذا يعني أني قــوي؟ وإن كان ذلك، بماذا تفيــدني، الآن، قوة مدّعاة لا أحس بها، ولا تمكّنني من أكون حرا أو نصف حر أو ثمنه. هي ليست أكثر مــن خيبة وخــبرة لأظهرها للناس بهيئة قوة. وأنــا لست بحاجة، في تلك اللحظة وفي هذه الحال لأحكام قيمة ترضي ذاتي السجينة الخائبة تلك،

فأنــا أكره أنايا السجينة. أريد أن أكــون أنا من دون سجن، فحاجتي هي لحريتي... لخياراتي... لتدَخّلي في أمور غير أموري الشخصية. فالأنا الحــرة لا تتوجد هكذا لوحدها مثل عوســج بري، بل تحتاج إلى غابة من الخيــارات. فالأنا في جوهرها هي عبارة عــن اختيار قرار أو قرار خيار. فــإن لم تكن الحيــاة بحاجة لأختار قــرارا لها... لخيــار يدخلني فيها، وإلا انعدمــتّ، فأنا إذن لن أكون موجودا إلا كمجرد ككائن حي. فإن كان محيطــي لا يحتاج إلى موافقتــي أو معارضتي أو ممانعتي لأمر ما، فكيف أدّعــي أنــه محيطي. فياء الملكية هنــا ليست دليل ثــراء في الملك بل دليل وجود الأنا المالكة.

ارتأيــت أن أتخلّــص مــن كل عاداتــي السجنيّــة، تقديــرا أنها تحول دون تأقلمــي أو اندماجــي مع الحيــاة. فأنا خارج السجــن الآن وليس له حضور أو وجود سوى بتلك العادات التي تبقيني أسيره وخصيّه، لهذا إن تطهّرت منها أعود بِكرا تتشهاني الحرية فتأتيني راغبة راضية وتدخلني لتصــيّرني حرا: امتنعت عن القراءة وسماع الراديــو، لن أقرأ بعد اليوم لتزجيــة الوقــت كما السجــين، ولن أسمع أخبــار الراديو التــي لا تهمنــي الآن بعــد أن صرت بين النــاس وبقلب أخبارهــم... ولن ألعب الشدة ولا الشطرنج... ولن أمشي للمشي ما لم أكن قاصدا مكانا... ولن أشارك في نقاشــات ثقافيــة لا تعنينــي... لــن أشــرب المتة... لــن أجمع بذور الزيتون أو نوى التمر... لن أستحم بالماء البارد ولن آكل مرقاً أحمر... لــن ألبس الــروب دي شامبر ولن أعتمر قلنســوة انعرفت بها سجينا... لــن أستحضر أحلام يقظة حتــى لو كنت فيها مليونــيرا أو فحلا... لن أمارســ العادة السرية حتى لو عجزت عن الجمــاع. صمدت أشهرا على هذه الحال، رغم تعبها ومعاناتها، فأن أتخلى عن عاداتي أحتاج لغيرها، لبديل لها. أليس الإنسان، في بعض المقاييس، هو عادات وأنماط. خسرت عــادات السجن الحميمة جــدا ولم أكتسب عادات جديــدة. فليس لي أنا جديــدة لها عاداتهــا وطباعها. بدوت سخيفا بنظــر الآخرين لا طعم لي

ولا ظـل. وفشلـت كذلـك في إخفاء كينونتـي الشاذة، فمـن لا يعرف عن السجون والمساجين ظنني معتوها، ومن خبر السجن وعرفه كشف تلبّسي الأخرق.

كانـت الأيام تمر علـي حينها ثقيلـة بطيئة من حِمْل هـمٍّ متابعة بقية العمر في خسـران لن ينزاح. صار الوقت ثقلا أحمله فوق كاهلي كذنوبي الكثـيرة، لا أعرف كيـف سأقضي ساعـات يومي، فإن أتسلـى يعني أني أنتظـر أمرا مـا ولو كنت لا أعرفـه، وإن أعمل فهذا لقصـد ما لا يهمني أن أقصـده. صار الغد لعنة مخيفة... وحشا يتربصني، أحتاج للعقاقير المهدئـة والمنومة لكـي أتمكن من مواجهته. عاد الوقـت ليكون مصارعي ولم يصبـح مطيّتي لأكـون طليقا: إذن أنا سجـين ولست طليقا... عدنا للدائـرة الأولى، وكأنها دائرة الطباشير القوقازيـة: يشدني السجن من طـرف وتشدني الحريـة من الطرف الآخر، كل يدّعـي أبوتي أو أمومتي، لتتخلى عني الحرية في النهاية كما تلك الأم الأصيلة خشية علي أن أنملخ بينهما. وبدا أن محاولة إقلاعي عن عادات السجن بقصد التخلص منه أكـدت أني صرت سجين سجن لا فكاك منه علـى ما يبدو، فكل ما أفعله ليـس أكثر من محاولة أسلـوب جديد يضاف إلى محاولاتـي العقيمة في السجن لمقاومة الانحباس: إذن أنا سجين.

لكـن ماذا لو كنت مخطئا في تقدير الأمـر وأني السجين أفضل وأريح منـي طليقـا؟ لماذا أعتـبر السجن هـو الأسـوأ طالما أن عاداتـي وروحي تشـدني إليه، وطالما أشعر بغربتي عن الحيـاة؟ بدأ هذا السؤال يصخب دماغـي بعد أسابيع علـى خروجي من السجن، حين انفضـ الناس عني لحياتهم... حين سئموني!! ما هذه الكلمة المجحفة بحق الناس! لا أدري كيف سقطتْ على أوراقـي، حاولت شطبها لم أستطع. كتبتها وأنا جالس علـى الرصيف، كعادتي، فربما كنت سمعتها مـن أحد المارة أو من راديو إحـدى السيارات العابرة، فكتبتهـا دون انتباه. لا تطيعني الكتابة إلا على الرصيـف أمام الفـرن الذي أديره، فقد أكون بحاجـة لرؤية هؤلاء المارة

وباصات النقل الداخلــي القبيحة الشكل والسيئة العمل لأشعر كل لحظة أني خارج السجن، وكي لا أنسى نفسي وأعود حبيسا.

ورطتنــي هــذه السئموني بباقــي الصفحة: أنا لست ممتعــا ولا مفيدا لهــم. لا أمتلــك حلو الحديث، ذاكرتــي ومخيلتي تمتلئــان بالسجن حتى شحمــة أذني وتستحضرانه دوما إلى بوابة وعيي. ولا يرضيني أو يمتعني الحديــث عن السجــن لأي كان، لكني فعلتها مــرّة واحدة في تلك الفترة، حــين انجررت للحديث عن السجــن دون انتباهي أو إرادتي. حصل ذلك عندمــا كنت سهرانا في بيــت أدخله لأول مرة ولم أكــن أعرف أصحابه، وكل مــا أذكــره الآن عن هذا البيت أنه في حي التجــارة. ولا بد كانت بين الحضور امــرأة شفافة، ولا بد أنهــا سألتني أسئلة شفافــة جعلتني أبوح لهــا بمــا أحجبه عن الناس. أجــزم بهذا الأمر لأن هــذا الفيض أصابني ثانية بعد عمر من تلك الليلة، حين جرجرتني، صبيحة يوم، امرأة شفافة لأبوح بمخبوءاتي. لم أقو على عدم الذهاب إليها رغم أني كنت أشعر أنها ستجعلنــي أبوح لها بما أحجم عن قوله لأصدقائي من الرجال لجلافتهم المؤذيــة، ولــو عن غــير قصد: أنت كنــت في سجن صغير وكنــا في سجن كبــير. أما المــرأة الشفافة فيمكنهــا أن تشف مخابــئ روحي... أفتحها لهــا طواعية، حتى لو كان الصبح قبــل أن أبلغ صحوتي وقبل أن يؤانسني صوتــي حــين يكون مازال برّيا كأن لا صاحب لــه. تُبكيني على حالي حين تدمــع عيناها مضحية بمكياجها الــذي استلزمها كل صباحها. أقدّر، إن تبكي المرأة في المساء فمن السهل اعتباره حسرةً على يوم مضى من عمر الصبــا. أمــا أن تبكي في الصباح مــع بداية أمل بتعويضــ خيبة الأمس، فهذا تضحية منها لأجلي... لأن أكتب نشوة ولو عن الألم.

حــق الآخريــن أن يسأمــوا مني بعــد الأسابيع الأولى تلــك، ويتركوني لوحدي أستيقظ كل يوم لأعد ركوة قهوتي وأتصل ببعض أصدقاء السجن حســب دورهم الأسبوعي بالاتصــال كما برمجته لنفســي. وأحيانا كنت أختلــق فعلا ما أو عملا أتفه من أن يكــون بلا معنى لأجد ذريعة للخروج

مــن البيت. وإن لم أخرج أختلق فعــلا يحقق لي دورا في بيت أهلي، مثلما غافلت أمــي في غيابها وأعدت ترتيب أساس البيت القليل الفقير. أعدت ترتيــب أشيائه التي عُرفت على حالهــا الراهن منذ أُحضرت إلى البيت. لم ترضــ أمــي، فاستغلت غيابي وأعــادت كل الأشيــاء إلى مكانها، لآتي وأصــرخ وأشتم وأدّعي أنني مضطهد حتى في بيت أهلي وأنهم لا يرغبون في وجودي.

ربمــا سئموا رائحة السجن التي تفوح منــي بعد أن ظننت أنهم ألفوها مــن كثرة وجــود المساجين والسجــون والسجانين في بلدنــا. لكن على ما يبدو أن السأم يتربصــ بالمألوف، خاصة إذا كان هذا المألوف غير أليف كرائحة السجن.

لم أهتــم يوما للروائح قبل أن أعرف هــذه الرائحة، قبل أن يغمسوني فيهــا حتى قمة رأســي وقمة ذاكرتي وقمــة أحلامي. قبلهــا كنت أعرف الروائــح وأشمهــا وأميّزها وأستخــدم العطور والأفترشيــف، لكن كانت كأي شــيء عابــر ثانوي في حياة شاب مندفــع لا تعيقه الروائح ولا تحفزه ليفعــل ما يمليه عليــه شبابه. لكن بعــد أن عرفت رائحــة السجن صرت مهووســ روائح: أُقبل على الأشياء أو أنفر منها من رائحتها. قبل ذلك لم تكــن تثنيني رائحة الصبية عن الإقدام عليهــا، كما لا تشدني إليها. بعد السجــن صارت رائحة المرأة شرطا محفورا علــى ألواح رغبتي. رائحتها وليس رائحة عطرها... رائحة ثناياها حيث لا تصل العطور أو لا تدوم، وحين لا يمكن لكل عطور الدنيا أن تخفي عني رائحة السجن. فإن فاحت منها رائحة تقارب رائحة السجن لن تجد في جسدي عضلة واحدة تتوتر أو تشتد...، أنفر مثل حيوان جفلٍ.

مــرة، كذبت علــى امرأتي كذبــة وردية، حين كنت بــين ذراعيها وكان أنفهــا يرعى روائح عنقي، بأني لا أتعطر بقصــد أن تميزني من رائحتي عــن باقي الرجــال. كذبت إذ لم أقل لها أني لا أتعطر لأراقب دوما رائحة

السجن إن هي مازالـت عالقة على روحي. فإن استشعرتها أنادي ابنتاي أضمهما وألاعبهما لتنطرد تلك الرائحة من تحت جلدي.

الرائحة هوية، تفرّق بين الأشخاص، فمن رائحتهم يُعرفون سجناء أم طلقــاء، من غير الرائحة تلتبس الحقيقة ويختلط الحدس بينهم. لا أداة ولا اختبار ولا تحليل يكشف رائحة السجن إلا الخبرة، مثل تذوق الطعوم والعطـور والخمور. رائحة السجن لا تُوصف، تُعرف... تُشم فقط... لا أشبــاه لها في الحياة، اسمهــا هكذا بالخط العريض: رائحة السجن. من لا يعرفها لينس أمرها ويعش هانئا... عَطِرا.

أظـن أن جسدي استنفذ طاقته أخيرا بعد يومين أو ثلاثة من خروجي مــن السجن، ولم يعد يحتمل الصحو والبحث عن حريتي، انهارت خلايا أعصابــه... أخذه النــوم دون إرادة أو قرار أو رغبــة، لا أعرف كيف تم الأمــر. كل ما أذكــره أني صحوت من نوم لم أجد قربــي أحدا أتبيّن منه حقيقة الواقع الذي أنا فيه، فاعتقدت، بل قررت أني طليق... فصحوت. ومــن يومها لا يتم هــذا الصحو بتلقائية، ولليوم وفي كل مرة أستيقظ من نــوم ما أذكّر نفسي فــورا أني طليق وأني خارج السجــن حتى أتمكن من الصحــو. ومازلت أخاف من استيقاظ مباغــت يُشغلني عن هذا التذكير فأجــد نفسي سجينا، وأخاف من لعثمة صباحيــة نتيجة كابوس فأُخطئ وأعتقــد أني في السجن وإذ بي أصحــو منحبسا فيه. افتقدت اليقين منذ ذاك الاستيقاظ: فربما كل ما أدعيه عن سجني قبل تلك الغفوة ليس غير كابوسَ طليقٍ يرعبه السجن، أو ربما ما أحكيه عن حياتي بعده ليس أكثر من حلم سجــينٍ يتوق للانعتاق من حبسه عاشقا حريته، لكن ليست تلك الحرية الحمراء التي تُدق أبوابها بالأيدي المدماة، وليست وعي الضرورة الــذي كذّبها حــذاء السجان، بل هي فرحي، انتفــاء وجع روحي، رجولتي ومقدرتي على الحلم التي خسرتها، على ما يبدو، إلى أبد الآبدين(*).

* أنجز هذا النص في ٢٠٠٤/١/١٧ على أن ينشر في كتاب مشترك مع أكثر من «سجين سابق» لكن المشروع تعثر. وقد تمت صياغته في شكله النهائي هذا في ٢٠٠٥/٤/٢٩ في الذكرى الرابعة عشر لإطلاق سراحي.

ملحق

هــذان مقالان كنت قد نشرتهما في الصحف اللبنانية في فترة سابقة. اخــترت نشرهما في آخر هــذا الكتاب ظنا مني أن لهمــا علاقة مباشرة في الموضــوع الذي أكتب عنه، فعلى الأقل يمكــن أن يعكسا تصوري ورأيي الآن، بعد مضي كل تلك السنوات، بمسألتي التعذيب والاعتقال والملاحقة الأمنية. وربما يمكن أن يعكسا حالتي النفسية والذهنية بعد خوضي تلك التجربة المذلة في السجن.

لعنة جواز السفر(*)

نعم أنا الذي كتبت في جريدة «النهار» حكاية يوم من أيام سجني. كان هـذا جوابي عن سؤال المحقق: أليس أنت من كتب عن توقيفه وسجنه في جريدة «النهار»؟.

أربكنـي سؤالـه قليلا فقد فاجأني بـه، إذ كنت أتوقع سـؤلا عن سبب طلبـي جواز سفـري، أو إلى أي بلد أنـوي السفر، ولمـاذا؟ كنت محضّرا نفســي للجواب عن أي سؤال يخص هذا الموضـوع، فأنا مستدعى لديهم بسبـب طلب الموافقـة على منحـي جواز سفـر بعدما عرفـت أن أمثالي السجناء السابقين استطاعوا الحصول على جوازاتهم أخيرا بشكل سهل وبسيـط وبإجـراء روتيني لا أكثر، وأن بعضهم سافـر إلى بلدان بعيدة أو قريبة وعادوا أو بقي بعضهم في تلك البلدان محتفظا بحقه في العودة إلى سوريا متى شاء.

تشجعـت بعد معرفتـي بهذه الأخبـار وتقدمت بطلبي حسـب الأصول والإجـراءات المتخـذة في حق السجناء السياسيـين السابقين، وإن مضى على الإفراج عنهم ثلاثة عشر عاما مثلي. فأمثالنا تعتبرهم السلطة أنهم خـارج السجن ضمن إطلاق سراح مشـروط مدى الحياة: ممنوعين من السفر ومن جـواز السفر إلا بإذن مباشر من المخابرات وحسب رضاها، ومفروضـ على بعضنا مراجعة فروع المخابـرات بشكل دوري كل شهر أو أقـل، يوقفون هذا الإجراء حينا ويعودون إليـه حينا آخر كي لا ننسى أنه يمكنهم أن يعيدونا إلى السجن بلا تهمة متى أرادوا، وسنبقى طوال سنين حياتنا تحت المراقبة المستمرة وعرضة للاستجواب في كل لحظة.

* ملحق جريدة النهار ٢٠٠٤/٨/١٥.

بعــد أيام أبلغوني وجوب المثــول لديهم بسبب طلبي. كان بلاغهم هيّنا وحاملــه غاية في التهذيب والأدب، وربما الخجــل. على خلاف ما عرفته منــذ سنوات عندما تقدمــت بالطلب نفسه والإجراء نفســه. يومها بُلّغت بفظاظــة، وكان البلاغ محددا في اليوم التالي وفي وقت مبكر لمراجعتهم. هذه المرة تركوا لي تحديد اليوم والتوقيت حسب رغبتي ومشاغلي.

ذهبت في اليوم المحدد أخفي قلقي من أن يعاملوني بفظاظتهم المعهودة وعــدم احترامهــم لأي شخــص. هدأ بــالي واسترخيت منــذ ردّ عناصر مكتــب الدخول على تحيتي الصباحيــة. كان ردا مهذبا ومحترما، وتبدد كل قلقــي عندما قابلت المسؤول عن موضوعي. دعاني إلى الجلوس وأخذ مني ورقــة الاستدعاء وهويتي، ونادى حاجبه ليباشــر إجراءات أوراقي. كان عاديا جدا لم يتصنع اللطف ولم يمثّل القسوة. رد على مكالمة تلفونية وبعد إنهائها توجه إليّ يشكو ركاكة بعض الأعمال الإدارية ومشاكلها رغم توافر الكومبيوتر. شكواه كانت تحمل تخليه، أو تخليهم، عن ادعاء المقدرة والمعرفة المطلقة أمام الخصــوم والأعداء مثلي، وكانت تحمل دعوته إليّ للمشاركــة في شــيء ما ولو كان البحــث عن حل لهذه المشــاكل. إذاً نحن شريكان مجددا.

أثنــاء هذه الدقائــق القليلة كان قــد انتهى من أوراقــي فسلّمني ورقة استدعاء جديدة إلى فــرع مركزي في العاصمة، وقام وصافحني مودعا. خرجت بروية وسرت متمهلا كأنني أغادر وزارة الثقافة، لا يدفعني شيء لاستعجال الخروج من هذا الفرع كما المرات السابقة.

خــلال مســيري إلى بيتــي القريب كنــت مندهشــا وغير مصــدّق أن مراجعتي لم تدم أكثر من ربع ساعة، في حين أن المرة السابقة استغرقت عشر ساعات على يومين متتاليين لم يقدموا لي فيها كرسيا أجلس عليه. شعرت برغبة أن أكرر هذه الزيارة مرات لأتأكد أن إجراءات اليوم ليست صدفــة أو استجابة لدعوات أمي وزوجتــي. مشيت أفكر: كيف استطاعوا

أن يتحولـوا إلى هذا السلوك بعدما كانـت وجوههم وكلماتهم في السابق تدخل إلى النفس كدخـول السم إلى الجسد فيرتعش باضطراب، نافرا، نابذا، قرِفا من مـرارة السم. ربما تكون هذه هي طبيعتهم وكانوا سابقا يمثلـون دور الجلاد، ويتحملـون مشقة هذا التمثيـل، متأملين أن تحقيق واجبهـم الوطني بـزرع الرعـب في قلوب «الجماهـير» المؤيـدة والمبايعة لقيادتهـم، يعوضهـم عن هذين التعـب والمشقة. وربما يكـون هؤلاء غير أولئك، استبدلوهم بهم ورموا بأولئك في قاع مظلم خجلين من أن يراهم أحد. لا أظنني سأصل إلى جواب ولو قمت بزيارات عدة لهم.

ارتبـك المحقق من إجابتـي. فكرر سؤاله بارتبـاك وكأنه لا يصدق ما أقوله أو لا يقبل ما تؤكده له أذناه. وربما انزعج لأن إقراري الصريح فوّت عليه جولة تحقيق طويلة يخرج منها بطلا باستئصال اعترافي من جلدي. أو قـد يكون فوجئ بوقاحة اعترافي بما يظنه جرما توقع مني نكرانه. هو لا يعرف أني منذ خروجي من السجن قررت ألا تعرف المخابرات معلومة صحيحـة عني لا يعرفها كل النـاس، وأن كل ما أفكر به أو أرتئيه أو أحلم به أو أتذكـره، أكتبه وأنشره وأعلنه على الملأ. بهذا سأجعل عملهم في ما يخصنـي بلا قيمة، وستكـون رواتبهم التي يأخذونها مـن دخلنا القومي ومن إنتاج السوريين أموالا يتقاضونها بلا عمل.

حـاول أن يبـدد استغرابه من جوابي فسألني: ولمـاذا كتبتها؟ ولماذا لا أكتبها؟ أجبته، وما الغريب في الأمر؟ فأنا كتبت عن أمور كثيرة. لا. هذه أمرهـا مختلف، ولماذا اخترت جريدة «النهـار»؟ لأنها من أهم الصحف ولأنهـا تقبل أن تنشـر لي. من دفع لك ومن دفعـك إلى هذا حتى كتبت؟ لم أستوعب السـؤال، فكرره. رفضت الإجابة مستغربا السؤال. خرج من الغرفـة وتركني مع ثلاثة عناصر آخرين يتناقشون في قرار قرض للزواج فهمت مـن حديثهم أنه صدر أخيرا، فأحدهم ينـوي الاستفادة من هذا القرض متأمـلا حصوله على الحـد الأقصى للقرض والبالغ ثلاثمائة ألف ليرة، لكـن زميله بيّن له بالطرق الحسابية أنه لا يستطيع الاستفادة

مـن أكثر من مئة ألف، إذ أن صيغة القـرار لا تتيح لأي موظف في الدولة الاستفادة من الحد الأقصى بسبب ضعف الرواتب.

انشغلـت بهم قليلا ثم عاد ذهني إلى موضوعي متسائلا: لماذا اهتموا بهـذه المادة دون سواهـا. ألأنها مكتوبة عن السجـن أم لأنها منشورة في جريـدة «النهار». لمـاذا لم يسألني عن مساهمتـي في بعض الكتب أو عن مقالات أخرى نشرتها في جريدة «السفير» وفي «النهار» أيضا. فهذه أسهل عليـه الحديث بشأنها فهي عبارة عن رأيـي في بعض الموضوعات، يمكنه أن يساومنـي أو يفاوضنـي عليهـا، أو يقنعني برأي آخـر أو يجبرني على حجب رأيي. أما تلك المادة في «النهار» فليست رأيا لأحجبه أو موقفا قابلا للأخذ والرد. هي حكاية يوم من أيامي الطويلة في المعتقل، هي جزء مني ومـن جسدي تتلبسني في ليلي ونهـاري، كتبتها ونشرتها علني أرتاح منها لليلة أو لغفوة أستيقظ بعدها مبتسما ولو مرة في وجوه أطفالي.

كل إنسـان يحتاج أن يحكـي، وأقل ما يحكيه حكايات أيامه. أنا لم يبق في ذاكرتـي سوى حكايات سجنـي، كل الحكايات قبله حكاها أهلي مئات المرات خلال أعوام حبسي، وبعده لم تبق لي ذاكرة فقد انتزعوها مني في التحقيـق، لتصير كل أيامي بعد السجن مفلوشة مفضوحة أمام كل عابر سبيل فلم يبق عندي سر أرعاه وأهدهده، ولا حكايات جديدة أحكيها.

عـاد بعد قليل وطلـب مني أن أكتب مـا اعترفت به، فكتبـت. لا أدري إن كان صوابـا أني كتبت، فهـو لم يجبرني على هذا، بل للأمانة ترك لي الخيـار أن أكتـب فأنال جـواز السفر أو أمتنع فأعـود في الحال إلى بيتي سالمـا غير غـانم. صحيح أنني احتججت على هـذه المساومـة العتيقة، وطالمـا الأمـر كذلك لماذا أكلف نفسـي السفر من اللاذقيـة إلى دمشق، لكننـي كتبـت. قرأ السطر الـذي كتبته، فلـم يره كافيا، فطلـب مني أن أكتـب عن دافعي لنشر تلك المـادة. لم نتوصل بعد إلى صيغة تفاهم حول هـذه النقطة، فتركـت القلم وقلت إني سأشرح له الأمـر ولو احتاج ذلك

لساعتين. أخذت أشرح له مدى حاجة الشخص الذي تعرض للتعذيب أن يشكو عذابه وذله للآخرين، فيظن بهذا البوح شفاء لروحه المرعوبة. وصلته الفكرة فقال: تقصد أنها فشة خلق، فقلت يمكنها أن تكون كذلك. تناول الورقة مني بعدما كتبت هذه الفكرة بشكل ما، وأخذ يقرأها بتوتر وتروّ. حقيقة لم أعرف لماذا يرى في إجابتي غرابة، أم يرى فيها جرأة ووقاحة لم يتوقعهما مني. الموضوع ليس كذلك. أظن في الأمر سوء تفاهم غير مقصود من كلينا: أنا أظن أنه لا يحق له أن يسألني عما أكتب، وهو متأكد أن له كامل السلطة الشرعية بسؤالي وبمنعي عن الكتابة، وإن كان لم يفعل، وأنه لا يحق لي، أسوة بكل السوريين، أن نعتقد ما لا يعتقدون أو أن نقول ما لا يفرضون علينا قوله.

تجاوز الموضوع وسألني عن سبب طلبي جواز السفر، فأجبته أني سمعت أنه لم يعد لديكم مانع لذلك. قاطعني: وأنت أتيت تتأكد من ذلك بنفسك؟ هذا صحيح، فليس في نيتي ولا في مقدرتي السفر إلى أي مكان أبعد من لبنان، وهذا البلد ليس ممنوعا عني.

أخذ كل أوراقه بعدما جعلني أوقّع وأبصم عليها وغادر الغرفة. بقيت وحدي هذه المرة بعدما تركنا أولئك الثلاثة. لم يقدموا لي فنجان قهوة ولا كأس ماء كما سمعت أنهم فعلوا مع غيري في الفترة الأخيرة، لربما غيري ليسوا مثلي، فبعضهم لم يفعل شيئا يغضب أحدا، وبعضهم قام بأفعال خطيرة حسب التصنيفات الأمنية. أما أنا لم أبق في موقع الأولين، ولم أرتق إلى مرتبة الآخرين، فبقيت في منطقة انعدام القهوة. فاكتفيت بإشعال سيكارة أنظر عبر نافذة أمامي راغبا في التقدم إليها لألقي نظرة على المكان الذي أمضيت فيه ست سنين من فترة سجني. لم أقم بذلك، خفت إن رأوني سيأخذونها حجة للإساءة إليّ، واستبعدت فكرة أن أستأذن بذلك من محققي عندما يعود فليس للأمر هذه الأهمية.

أشعلت سيكارة أخرى ولم يعد محققي. بدأ الشك والظنون السوداء

تتسلل إلى ذهني: هل سيقررون توقيفي. ما حاجتي إلى هذا الجواز اللعين، ألم أمتنــع لسنوات عن طلبه وكنت رافضــا الحصول عليه طالما سأحتاج من أجله لمراجعة المخابرات بعد تجربتي السابقة بطلبه؟ وماذا لو حصل عليه كل السجناء أمثالي، هل ينتقص من مقامي السجني عدم حصولي عليــه. هل يقبلــون أن أذهب ليوم واحد أودع فيــه زوجتي وبناتي وأحضر فيه عدة السجن وحاجياته؟ أظنهم سيقبلون، فالأمر ليس بهذه الخطورة وإلا لما انتظروا مضي نحو السنة على نشر مقالتي. يا لهذه المقالة اللعينة، لم تأت لي إلا بوجع الرأس، لم أنل بسببها اعتذارا من بوش أو رامسفيلد كما سجنــاء أبو غريب، ولم أطل شهرة رفعت الجادرجي، مع أني عانيت أكـثر منه. بل بقيت بعدمــا نشرتها لأيام قلقا منصتــا لكل حركة تصدر مــن ناحية درج البيت متوقعا قدومهم. وحين طالــت الأيام ولم يأت أحد اعتــبرت، بمقاييسي الذاتية، وجــوب أن أشكرهم علــى تفهمهم المتطور لحرية التعبير عندنا. لا، لا أعتقد أن الموضوع يستدعي توجسي، وما هذه الوساوس إلا نتيجة إرهاقي من السفر وعدم النوم في الليلة السابقة. هذا أكيــد، ألم أغضب من سائــق التكسي الذي أوصلنــي ممتعضا من قِصر مشــواري، فصرخت في وجهه بشــدة وهددته وجعلته يقــود السيارة كما أريــد. صحيح هو المخطئ ولقد استفزني مع أني رجوته ألا يفعل، لكن لم يكــن يقتضــي الموقف مني كل ذاك الغضب لــو لم أكن مجهدا من السفر والسهــر، وهــذا هو بلا شــك سبب مخــاوفي الآن وليس غيــاب محققي. ضحكــت مــن نفسي مــن ذكرى حادثــة التكسي حين قارنــت بين موقفي هنــاك كيــف كنت مثل عنتر وبين موقفي هنا مثــل أرنب أو مثل عنتر وقع في مصيــدة للأرانب. أيــن طبقة صوتي تلك التــي أخافت السائق غارت في أحشائــي الآن، يا لهذه البلاد اللعينة نتبادل فيها كرات الخوف طوال يومنا. من أخاف سائقي اليوم قبل أن يلقاني، ربما زوجته أو أبناءه، وكم مرة اليوم سينتاب محققي الخوف من أشخاص آخرين.

طــال غيابه أكثر، أظن ذلك دليل سلامــة، فمن تجربتي معهم أعرف

أن أمـر التوقيف لا يحتاج إلى كثير مـن الوقت بعكس أمر الإفراج يحتاج إلى سنـين. لكن ماذا لو اعتقلـوني؟ ليكن، فليس في يدي حيلة، ولست في موقـع من يطرح هذه المـاذا. لكنهم منذ سنين ملتزمـون إحالة أصحاب الـرأي المخالف على المحاكـم. ومع أن هذه المحاكم غير الشرعية إلا أنها أفضل من الإجراءات السابقـة خاصة لقضية كقضيتي. توقفت عن هذا الاستطـراد: لقد جعلـت لنفسي قضية لا أساس لهـا إلا مخاوفي، ما هي التهـم التـي يمكنهـم أن يوجهوها إليّ؟ هـل سيعتبرون أن مـا كتبته قلة أدب والجريدة نشرتها تحت صنـف الأدب؟ إذن فليقاضوا الجريدة. أم أنهـم سيعتبرون قصتي كانت المرجع للجلاديـن الأميركان في سجن أبو غريب تعلموا منهـا أساليب التعذيب ومهاراته. سـأرد هذه التهمة جملة وتفصيـلا، فروح أبـو غريب هي المسؤولة ولست أنا. كمـا أستبعد اعتبار قصتـي إفشاء لأسرار علمية وطنية كما عبـد القدير خان. ربما يريدون هم المبادرة والإفصاح عن موضوع الاعتقال والتعذيب السابق ويعتذرون، لكنهـم ينتظـرون إتمام مرحلة الإصـلاح الإداري وبعدهـا إتمام مرحلة الإصلاح الاقتصادي ليتفرغوا لإنجاز الإصلاح السياسي ينجزونه بهدوء وسلطنة، وبعدها يمكننا جميعا فتح ملفات حقوق الإنسان. فاعتَبروا ذنبي أني فوّت عليهم فرصة السبـق، وكنت عجولا ولحوحا بكتابة تلك القصة بعد مضي عشرين عاما على ذاك اليوم الذي أحكي عنه، فتوقيتهم يحين بعد ثلاثمائة وعشرين سنة.

لمحتـه بطرف عيني قادما فسارعـت إلى الالتفات لأنظر إلى يديه. لم يكن يحمل كلبشات بل أوراقا كتبها هو بخط يده نقلا عن أوراقي، بتنسيق يصلـح للأرشفة وطلب مني أن أوقعهـا وأبصم عليها كما العادة، ففعلت مـن دون أن أقـرأ المحضر الـذي نظّمه فهذا لا أهمية لـه. ناولته الأوراق ونظـرت في عينيـه ونهضت من دون أن يطلب منـي إذ فهمت من نظراته أن الأمر انتهى ويمكنني العودة إلى بيتي. فسألته إن كانوا سيوافقون على طلبي فأجابني بالإيجاب، وأظنه صادقا. فرغم أنه لم يبتسم لي ولا مرة

ولم يبــذل جهدا ليظهر لي لطفا إلا أنــه كان في غاية التهذيب والكياسة. مــددت يدي وصافحته مغادرا بسرعة كبيرة ذاك المكان الذي فقدت فيه الأمــان طوال ساعتــين. فعلى ما يبــدو أن كل إجراءاتهم الجديدة ليست كافيــة لإدخال الطمأنينــة إلى نفسي عندما أقابلهــم أو أراجعهم، وهذا ليس بسبب تقصير مني فأنا لا أملك السلطة على نفسي، أما هم فيمكنهم اتخــاذ إجراءات كثيرة لبناء ثقة بيننا أقلها الامتناع عن استدعائي حين أريد السفر كحال باقي خلق الله في العالم.

في طريــق عودتي إلى اللاذقية سألتني صديقتي إن كنت جادا في نيتي نشر هذه المادة أيضا، مستغربة أني لا أخاف. هي لا تعرف أني أكتب هذه المادة لأني أخاف، وكل ما كتبته كان دافعه الرئيسي هو الخوف أو مقاومة الخــوف. بل لم أعرف في حياتي إلا هروبــا متواصلا من الخوف، أركض أمامه وهو ظلي. الخوف محشور في حلقي أفيق عليه طوال الليل يخنقني. وأظن أن هذه حال جميع السوريين فكلهم يعانون من الخنّاقات الليلية ولا يعرفون لها سببا، أما أنا فأعرفه.

فاتنــي أن أســأل محققي عن رأيــه الشخصي في القصــة، فربما كان حديثنا في موضوعها أكثر جدوى وسببا لتواصلنا، من الموافقة على جواز السفر.

كبيرة التعذيب(×)

ليس التعذيب من كبائرنا، ولم يكن كذلك يوما، نحن أبناء الشرق أو أبناء العرب أو أبناء الإسلام أو أهل التخلف. بل كثيرا ما نحلله إن وقع على غيرنا ولو كان ذلك بأيدينا. ولا نستهجنه إلا إن وقع علينا بأيدي غيرنا كما حصل في أبو غريب. فاستنكارنا لواقعة التعذيب الأميركي للمعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب، جاء بهدف النيل من الأميركيين وليس دفاعا عن المعتقلين، أو غيرة على الكرامة الإنسانية أو صونا لحقوقنا.

ربما لا نمجد التعذيب ولا ندعو له علانية، لكن بكل تأكيد لا ننبذه ولا نعتبره فعلا حراما، ويمكننا أن نجد في خطابنا الشفهي عند كل الجهات وعلى كل المستويات عبارات وكلمات تبارك التعذيب والإساءة الجسدية للخصوم، ويسهل علينا اتهام الغير بالخصومة. وغالبا لا نهتم لأمر التعذيب كونه يقع على الأفراد وليس على الأمة، التي نرى تحققها مستقلا بشكل نهائي عن تحقق الفرد، الذي يقتصر دوره في ثقافتنا على أنه مكلف بحمل رسالة الأمة. ودوما ما نشفع لجلادنا إن كان ابن جلدتنا إن هو شتم إسرائيل ومن في خندقها، بل حتى نحلل له تعذيب أفراد منا بحجة انشقاقهم عن مسيرة التحرير. فكل ثقافة حركة التحرر العربي بكل ألوانها لم تنبذ التعذيب، وغالبا ما مارسته قواها وفصائلها باعتزاز ومباهاة. وكان ذلك وفيرا خلال الحرب «الأهلية» اللبنانية، خاصة في المراحل التي كانت جهات غير لبنانية أطرافا فاعلة بشكل مباشر فيها، مثل السوريين والفلسطينيين، إضافة إلى اللبنانيين وغيرهم.

---

* جريدة السفير ٢٠٠٤/٦/٧.

ليس هــذا للمقارنة بين الانتهاكات الأميركية في سجن أبو غريب وبين انتهــاكات أغلب الأنظمة والسلطات العربية إن لم يكن جميعها. فمقارنة كهــذه لا معنى لها، وستكون تمييعــا للموضوع وتخفيفا من بشاعته. ففعل التعذيــب يجــب دوما إدانته والتصــدي له والتشهير بــه وتجريمه، بغض النظــر عن ظروف الواقعة وعن الجهة الفاعلــة أو من يقع عليهم الأذى، ولا يخفف من جريمته إن كانت جهات أخرى تقوم بأبشع منه أو أفظع.

وإن كان هنــاك شيء في هذا الموضوع تجوز فيه المقارنة وتصح، فليس واقعــة التعذيب بل ردود الأفعال عليهــا والمواقف التي اتخذت منها، بدءا بقرار الصحف الغربية بنشر الصور. فالمقارنة يجب أن تقوم بين تعاطي المثقفين والإعلاميــين والسياسيين الغربيين مع الموضوع وتعاطي أمثالهم من العــرب وجيرانهم الإيرانيين. فإذ نــرى أن الغربيين تناولوا الموضوع مستنكرين ممارسة الإدارة الأميركية لسجن أبو غريب، غيرة منهم على قيــم الحضارة الغربية التي نسميها القيــم الإنسانية، ودفاعا عن حقوق المعتقلــين العراقيين، بالإضافــة إلى غيرتهم على العناصر المرتكبين فعل التعذيب مما سيصيبهم مــن أذى وتشوه جراء ممارستهم تلك الأفعال. أمــا أغلــب المثقفــين والإعلاميــين والسياسيين العــرب فلم يهتمــوا أبدا بضحايا التعذيب، إذ نلاحظ أن كل صراخهم وكل قولهم هو محاولة للنيل مــن الولايات المتحدة، بل بــدا على بعضهم السعادة مــن حدوث الواقعة لشعوره أنه ضبط الأميركيين بفعل شائن يدحض ادعاءهم بنشر الحرية وقيم الديمقراطية. هؤلاء «البعض» كاذبون بادعائهم الغيرة على حقوق الإنســان، وكاذبون بادعائهــم الدفاع عن القضايــا العربية ومناصرتهم شعــب العراق، بل وكاذبــون أيضا بمعاداتهم لــلإدارة الأميركية. وهؤلاء «البعض» حاولوا قاصدين تلميع صورة أنظمة الاستبداد العربي وإغماض عيوننــا عن ارتكاباتهــا بحقوقنا، حين برروا تركيزهم علــى فضيحة أبو غريب وإهمالهم ارتكابــات الأنظمة العربية، بأن الولايات المتحدة تدّعي نشر الحرية والديمقراطية، أما الأنظمة العربية لم تدّعِ ذلك. وهذا غير

صحيــح، لأن هذه الأنظمــة ادعت دوما أنها حاملة رسالــة خالدة لإقامة الحرية والعدالة الاجتماعية.

إن مجــرد نقــل الموضوع من مجاله الحقوقي والإنســاني إلى البورصة السياسية والاكتفاء بمحاولة تحقيق نقطة كسب على الولايات المتحدة هو انتقاص وإضعاف من حجم الإهانة التي وقعت على المعتقلين العراقيين. فليس مهمّــا من ناحية المعتدى على جســده أو كرامته (أستند بهذا على تجربتــي الشخصيــة) إن كان المعتدي ابن جلدتــه أو محتله أو غازيه، بل ربما يكون الوقع النفسي عليه أكبر إن عذبه ابن جلدته.

ليســ التعذيب تحصيل حاصل لوجود الاحتلال، كما أنه ليس تحصيل حاصل لوجود أنظمة استبدادية أو غير ديمقراطية. هذا تسخيف لبشاعة التعذيــب أو لأي انتهاك لحق من حقوقنا. فكمــا أن انتهاك حقوقنا ليس تحصيل حاصــل لأنظمتنا الاستبدادية، فكذلك ليســ إقرارها أو الدفاع عنهــا جزءا من سلة أو «بقجــة» أمور تتحقق آليا بتغيــير هذه السلطات. فثقافــة لا تعتبر التعذيب الجسدي للأفــراد وإهانتهم من الكبائر، وترى أن مقابر صــدام الجماعية تحصيل حاصل لاستبداده وللدعم الأميركي له في فترة ما، ثقافة كهذه لا يمكنها إنتاج أنظمة ديمقراطية ولا حمايتها في حال تحققت في غفلة تاريخية.

وليســ التعذيب والاعتقــال السياسي ومنع الحريــات تحصيل حاصل لتخلفنا، ولا هــو قدرنا أو أحد مكونات هويتنا. بل ربما قبولنا بهذا الأمر وتواطؤنــا معه يمكن أن يكون، بوجه ما، سببا لتخلفنا. وقد يكون المفصل الأســاســي للانعطاف عن نفــق التخلف، أو العتبــة الأولى لدخول باحات الحضــارة، البدء بإكبار حقوقنا الفردية وتحريم قطعي لانتهاكها من أي جهة ولأي سبــب، وتجريم تعذيب أفراد منا، والامتناع عن تقديم شفاعة للجلاديــن لا إن واجهــوا أمــيركا ولا إن جابهــوا إسرائيــل. ولا نهوّن من انتهــاكات الأميركي، أو غــيره، لحقوقنا بحجــة أن سلطاتنا تقوم بأفظع

مما يقوم هو به. أشك بأن الصور التي رأيناها عن سوء معاملة المعتقلين في سجن أبو غريب هي كل ما قام به السجانون الأميركيون، فلا بد أنهم قاموا بأفعال أشنع وأفظع لم تطلها الكاميرات الغربية، ولم يلحظها أو يهتم بها غالبية الإعلاميين والمثقفين والسياسيين العرب، المشغولين بإثبات أن الوجود العسكري الأميركي في العراق هو احتلال وليس إرسالية تبشيرية، ويروجون أن ضرر هذا الاحتلال يقع على التراب وليس على المعتقلين أو الجوعانين أو البشر العراقيين. لهذا نجد أن قوافل إمداداتهم ومعوناتهم توقفت بعد سقوط صدام، لأن زيادة عدد المرضى والجوعى والمعتقلين الآن يمكن أن يعمق المأزق الأميركي.

أميل إلى الاعتقاد بأن ممارسة السجانين الأميركيين سببها نظرتهم المتعالية للإنسان العراقي، واعتبار حقوقه مستباحة للغريب كونها مستباحة أصلا ودوما للقريب. ولا أرى أن واقعة سوء معاملة المعتقلين وتعذيبهم في سجن أبو غريب هي أصيلة لدى الأميركيين، وإلا لما كان الذي أثار الموضوع واعتبره فضيحة كبرى هم الإعلاميون والمثقفون الأميركيون، رغم أن دافع بعضهم لم يكن غيرتهم على العراقيين بل على وطنهم الولايات المتحدة، حين اعتبروا أن تلك الارتكابات التي قام بها مواطنون أميركيون تشكل مساسا وخرقا للقيم التي يجتمع عليها الأميركيون، ولقد عبروا صراحة أنهم ضد التعذيب إن وقع عليهم أو أوقعوه هم على غيرهم، معتبرين كلا الأمرين يسيء لقيمهم واجتماعهم. ولم يخل هذا الأمر من مهزلة حين أصبح لعدة معتقلين غير معروفين هذا الشأن المهم وهذه الحفاوة الإعلامية (التي أثارت غيرتي) لمجرد أنهم تعرضوا للتعذيب على أيدي جنود أميركيين، في مقابل عشرات الألوف من المعتقلين العرب تعرضوا للتعذيب على أيد «وطنية»، فلم ينل هؤلاء اهتماما من أحد، رغم أن بينهم الكثير من الأسماء المعروفة والمشهورة. ولم يعتذر منهم أحد، لا رئيس ولا وزير ولا برلمان ولا مجرد جندي. ولم يتعهد أمامهم أحد بعدم تكرار مثل هذه الأفعال، بل على العكس تماما،

فمـن سبق وانتهكت حقوقـه مرة عندنا على غير يـد الأميركيين تستباح كل حقوقه، ويفقد أي ضمانـات، ويبقى عرضة للاعتقال المتكرر وإساءة المعاملـة على أبسط الأمـور. قد يكون هذا الجانب هـو أكثر ما يستدعي المقارنـة بـين الإجـراءات والمواقـف التـي اتخذتهـا الإدارة الأميركيـة ومؤسساتها الرسمية، كالاعتذارات والتعهد بمحاكمة كل المتورطين بهذه الفضيحة، وبين ما تقوم به الآن العديد من السلطات العربية من مثابرتها على انتهاك حقـوق مواطنيها. فالسلطة السورية، كمثال، زامنت اعتقال طـلاب وناشطين في حقوق الإنسان، وأسـاءت معاملتهم (بحسب بيانات هيئـات حقوق الإنسان السورية)، مع فضيحـة سجن أبو غريب. والأنكى مـن هذا قيام الإعلام السوري وبعض المسؤولين فيه بحملة على الولايات المتحدة مستهجنين فيها ما حصل في سجن أبو غريب.

أتمنـى أن نستفيد مما حصل في سجن أبو غريب ورد الفعل الأميركي بتجاوبه وخضوعه للإعلام، فنجعـل منه درسا، عسانا نحاول أن نكرس استنـادا له أن تعذيب أي إنسان، عربيـا أو أعجميا، هو كبيرة لا تتساوى معها أفعال أخـرى، ولا تبررها أو تخفف منها أي ادعاءات سياسية. وأن التعذيب جرم مستقل عن الاعتقال وعن الأحكام الجائرة وعن الاغتيال أو الإعدام أو القبور الجماعية. وأن وقف الانتهاكات الأميركية في المعتقلات العراقية يمكن أن يتم قبل تحرير العراق، وأن السجناء العراقيين بحاجة للحماية من التعذيب وهم في ظل الاحتلال.

ترحـب دار بـترا بكل المساهمـات التي تنـدرج ضمن سيـاق حكايات السجن، إن كانت مكتوبة من قبل سجناء أو أهاليهم، أو من قبل سجانين، أو من قبل طلقاء شهود على مساجين.